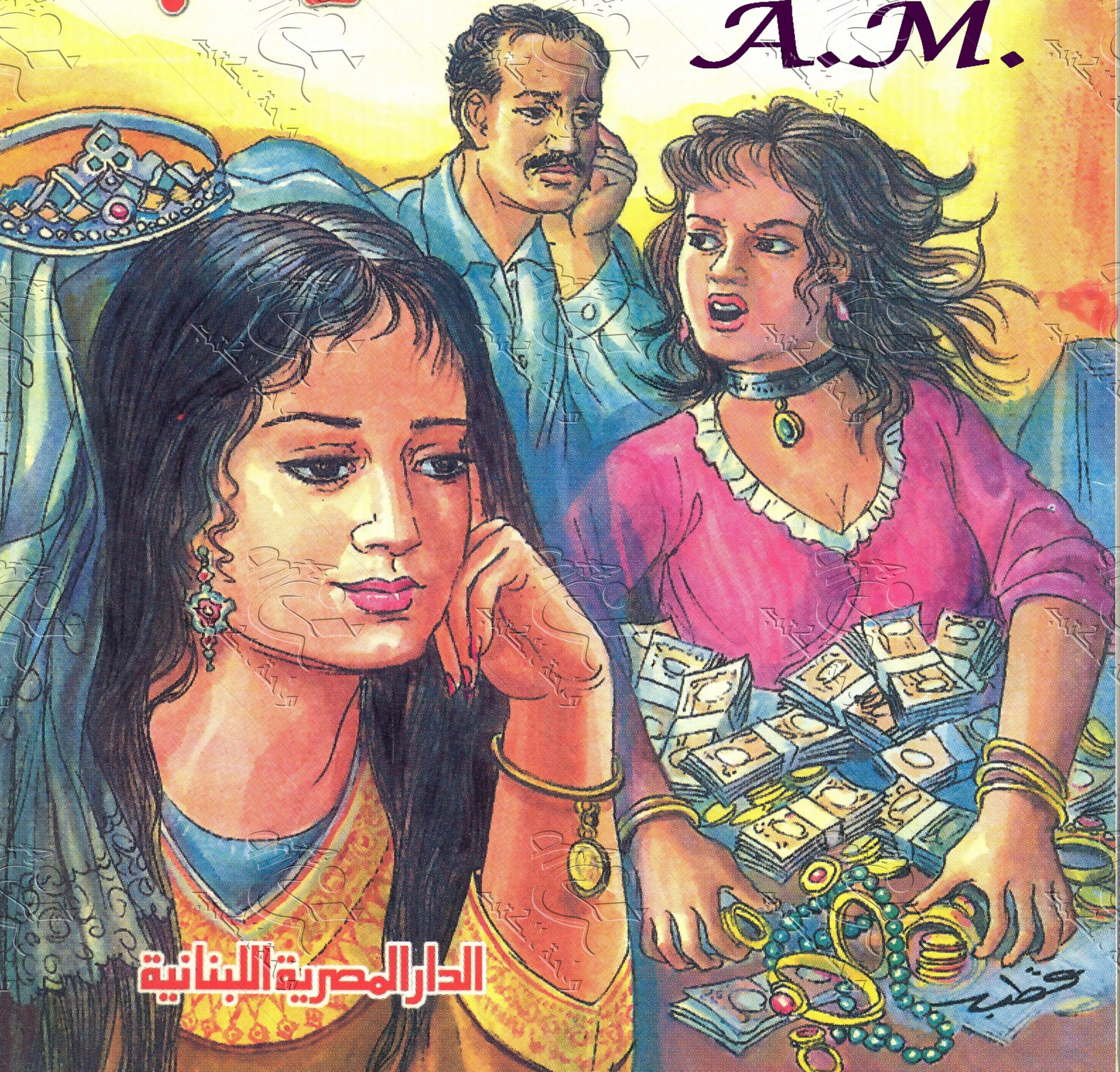
453

عبد الوهاب مطاوع

قالت الأيام



الدار المصرية اللبنانية

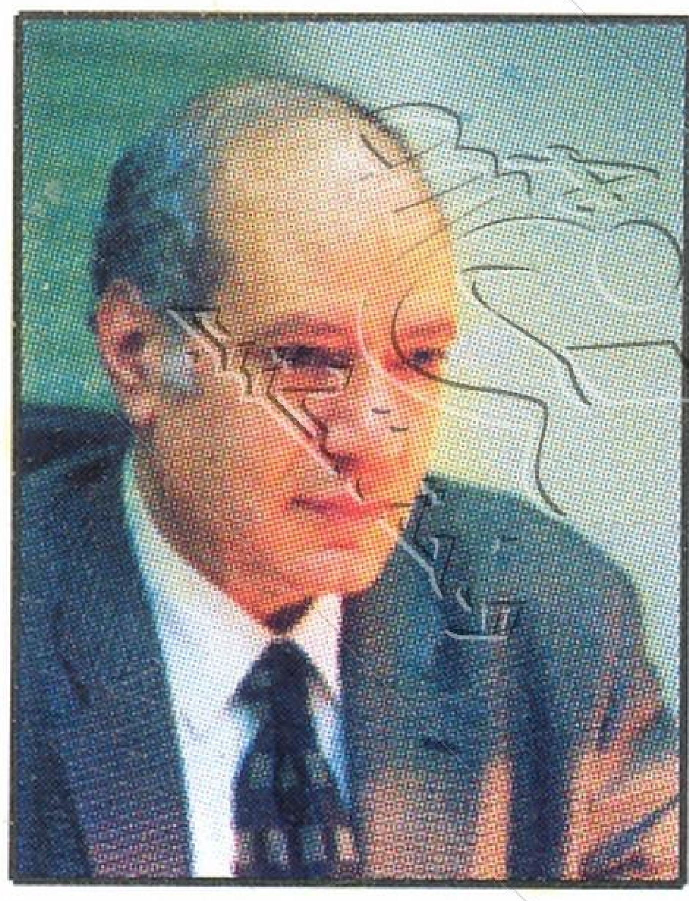
قالت الأيام

فى هذا الكتاب يتحفنا الكاتب الإنسانى الكبير الأستاذ عبد الوهاب مطاوع بسبعة عشر موضوعاً من قصص التجارب الإنسانية الصعبة التى يتعرض لها بعض الذين يلجأون إليه لكى يساعدهم فى حل تلك المشاكل التى تعصف بحياتهم ولا يجدون لها مخرجاً .

وحين يلهمه الله بالردود المنا[illegible]لحل مشاكل هؤلاء المهمومين ، فإنه [illegible] ألّا يكون رده لصاحب الم[illegible] يمكن أن تضعهم الأ[illegible] يستفيدوا بدرس التجربة [illegible]وع فى براثنها .

و « قالت الأيام » هو العنوان الذى اختاره الأستاذ الكبير عبد الوهاب مطاوع لهذا الكتاب ، مستوحياً إياه من قصيدة من ديوان الشاعر التونسى العظيم « أبو القاسم الشابى » الذى مات مهمومًا فى عز شبابه وقبل أن يبلغ السادسة والعشرين من عمره القصير . . وكان هذا العنوان معبرًا بشكل مباشر عما يتضمنه هذا الكتاب من قصص إنسانية ، ومن أنات حائرة ، وتأوهات متحسرة !

الناشر



- مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب .
- حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين الصحفية عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية .
- يكتب باب « بريد الجمعة » الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢ ، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام .
- صدر له ٤٦ كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصًا قصيرة وصورًا أدبية ومقالات فى أدب الرحلات .
- له ثلاث مجموعات قصصية هى : «أماكن فى القلب» و «لا تنسنى» ، و « الحب فوق البلاط » .

6222006319694

الدار المصرية اللبنانية

عبد الوهاب مطاوع

قالت الأيام

الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

ففى الغد.. صباح الحياة

يا أيها السادِرُ فى غيِّهِ
يا واقفًا فوق حطامِ الجباهْ
مهلاً.. ففى أنَّات من دُستَهم
صوتٌ رهيبٌ سوف يدوّى صداه
لا تأمنن الدهرَ.. إما غفا
فى كهفه الداجى.. وطالت رؤاه
فإن قُضِى اليومُ.. وما قبلُه
ففى الغدِ الحىّ.. صباحُ الحياة

أبو القاسم الشابى

(من قصيدة له بعنوان: قالت الأيام)

هذا الكتـاب

كنت مشغولاً بإعداد كتابى هذا للنشر، وانتهيت من اختيار مجموعة القصص الإنسانية الواقعية التى تعاملت معها خلال الفترة الماضية فى بريد الجمعة، وراجعتها من جديد وراجعت ردودى عليها، واكتشفت خلال عملية المراجعة أن ردودى قد بدأت فى السنوات الأخيرة تميل للإطالة والإسهاب وتستسلم لإغرائهما بعض الشيء، فلُمت نفسى على ذلك كثيرًا وعزمت على أن أحاول الالتزام بما اجتهدت دائمًا للالتزام به منذ أمسكت بالقلم، وهو ألا أكتب كلمة أو عبارة أشعر خلال مراجعتى لها أنه يمكن حذفها والاستغناء عنها اكتفاءً بما سبقها من كلمات، ولقد اعتدت بعد أن أنتهى من كتابة ردى على كل رسالة من رسائل المهمومين الذين يكتبون إلىّ، أن أعيد صياغة هذا الرد مرتين، وأحيانًا ثلاث مرات، وبعد إعادة الصياغة هذه فإننى أعمد إلى مراجعته مرة أخرى لأقوم بتوثيق ما تضمنه الرد من استشهادات بآيات الذكر الحكيم، أو الأحاديث الشريفة، أو كلمات المفكرين والفلاسفة، أو أشعار الشعراء، وتستغرق منى عملية «التوثيق» هذه وقتًا كبيرًا لأنى أكتب ما أستشهد به فى البداية عفو الخاطر واعتمادًا على ذاكرتى.. ثم أهتم خلال مراجعتى لردى

بتوثيقه والتأكد من دقة عبارته خوفًا من غدر الذاكرة بى، فأرجع إلى مراجعى، وأستوثق مما استشهدت به، وأسعد فى بعض الأحيان حين أجد ذاكرتى قد أسعفتنى بنص العبارة بلا تحريف فى كلمة أو حرف منها. وأشعر بوطأة العمر، ووهن الذاكرة فى أحيان أخرى حين أجدنى قد نسيت بعض الكلمات أو الحروف، وكتبت عبارة مشابهة فى المعنى لكنها لم تلتزم بنص عبارة من استشهدت به حرفيًا، وأقوم بتصويبها اعتمادًا على مراجعى.

وبعد انتهاء عملية التوثيق هذه، أقرأ ردى على الرسالة القراءة الأخيرة قبل أن أسلمه للنشر، وتكون قراءتى هذه المرة بهدف واحد، هو أن أحذف منه كل ما أشعر بأنه استطراد لا يضيف للمعنى شيئًا ذا بال، فتكون مراجعتى الأخيرة هذه لردى بمثابة مقص الرقيب الداخلى عندى الذى يشفق على القارئ من أن يقرأ ما لم تكن له به حاجة لقراءته، ويشفق فى نفس الوقت على كاتب هذه السطور من أن يستسلم لإغراء الثرثرة التى لا طائل تحتها، ولا هدف إلا إثبات الذات أو إشعار القارئ بوجوده.

فكيف إذن وجدت ردودى قد مالت للإطالة والإسهاب على هذا النحو فى السنوات الأخيرة؟ أيكون حرصى على أن أحيط بكل جوانب المشكلة والتعليق عليها هو السر فى ذلك، أم يكون السبب هو «تنبهى» الدائم خلال الرد إلى أننى لا أكتب ردى لصاحب

المشكلة وحده، وإنما لكل من يمكن أن تضعهم الأقدار فى ظروف مشابهة لظروفه ليستفيدوا بدرس التجربة ويتجنبوا آلامها؟

لابد أنهما السببان معًا. . وبالأخص السبب الأخير، فالحق أننى أقول دائمًا إننى لا أتعامل مع «أشخاص» التجربة الإنسانية الذين يكتبون لى بشأن همومهم بقدر ما أتعامل مع «النماذج البشرية» الذين يمثلونها. . ولهذا فإنى لا أعتبر ردودى عليهم ردودًا شخصية تتعلق بهم وحدهم، وإنما أعتبرها تحليلاً لهذه النماذج البشرية نفسها التى قد يندرج تحتها كثيرون غيرهم، فلعل هذا السبب يكون عذرًا مقبولاً لى فيما استشعرته من بعض الإطالة فى ردودى على رسائل القراء الأخيرة.

ولعلى أظلم نفسى حين أتهمها بالضعف تجاه ما أكتبه حين أعيد قراءة هذه الردود، كما فعلت خلال مراجعتى لهذا الكتاب لأحذف منه ما لا حاجة للقارئ بقراءته، فلا تسفر المراجعة غالبًا إلا عن بضع كلمات هنا أو هناك.

ومع ذلك فلقد أمضيت ساعات طويلة وأنا أقرأ ما كتبت من قبل؛ لأختار هذه المجموعة الجديدة من قصص بريد الجمعة الإنسانية، ولأحذف من ردودى بعض الكلمات الزائدة فيها. وحين انتهيت من ذلك، بدأت التفكير فى المهمة الأصعب، وهى اختيار عنوان هذا الكتاب. .

وكعادتى أيضًا فى كل كتبى السابقة، فلقد كتبت له حوالى عشرة عناوين مختلفة، فلم أرض عن واحد منها. . وتلفَّت حولى أرقب الكتب المطلة علىَّ من رفوف مكتبتى، وقرأت عناوينها محاولاً استلهام عنوان ملائم من وحيها، ثم ضقت قليلاً بعناء التفكير فى العنوان، فنهضت إلى رف دواوين الشعر فى المكتبة لأقرأ فيه بعض الوقت مستروحًا، فإذا بيدى تقع على ديوان أبى القاسم الشابى «أغانى الحياة»، وإذا بى أقلبه فتقع عينى على قصيدته القصيرة الجميلة: قالت الأيام.

فأهتف صامتًا: يا إلهى، إنه العنوان الذى أريده لكتابى هذا. . فكل ما فيه من قصص إنسانية ومن أنَّات حائرة وتأوهات متحسرة، هو فى مجموعه مما قالته الأيام لهؤلاء المهمومين بأمرهم فى الحياة.

فشكرًا للشاعر المعذب الذى غنى للحياة فاختطفه الموت وهو فى الخامسة أو السادسة والعشرين من عمره.

وشكرًا للقارئ العزيز الذى يستقبل كتبى المماثلة بما أنحنى له تقديرًا وحبًّـا وامتنانًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبد الوهّاب مطاوع

(١)
جحيم العودة

«تبدأ المأساة حين ينظر الناس إلى الأمر غير العادى وكأنه من الأمور العادية، فتصبح القاعدة هى الاستثناء والاستثناء هو القاعدة!».

أنا شاب نشأت يتيما، فقد توفى والدى ـ رحمه الله ـ وأنا مازلت بالمرحلة الابتدائية، وبعد وفاته بسنوات تزوجت أمى من موظف انضم إلى بيتنا وعاش معنا، وكان طبيعيـًا أن نقابله أنا وأخى بالشعور المعتاد فى مثل هذه الأحوال من أطفال صغار تجاه زوج أمهم، لكنه بمرور الوقت سقط حاجز الجفاء من جانبنا تجاهه، واعتدنا وجوده بيننا بصورة طبيعية بعد أن لمسنا معاملته اللطيفة لنا، وبعد عام من الزواج أنجبت أمى من زوجها طفلة فرحنا كأطفال فرحة صادقة بقدومها وانضمامها لأسرتنا..

وبإنجاب أمى انشغلت بعض الشىء عن إدارة مشروع تجارى صغير كان يدر علينا دخلاً معقولا، وبدأ زوجها يديره نيابة عنها إلى جانب وظيفته، إلى أن اكتشفت أمى أن زوجها يختلس لنفسه منه ما يغطى

به نفقاته الإضافية، فكانت أزمة بينهما، وواجهته بما عرفت، واعترف هو بجرأة أنه يحصل لنفسه على ما يراه حقـًّـا له مقابل إدارته للمشروع، فقررت أمي أن تتخلص منه بالبيع وتغلق باب المتاعب.. وباعته بالفعل رغم معارضة زوجها، فإذا به يطالبها «بجرأة» أشد بنصيبه من ثمن البيع، ورفضت أمي بالطبع، فتطاول عليها بالضرب والسب أمام الجيران، وانتهى الأمر بينهما بالطلاق، ورحل الرجل عن بيتنا مصطحبًا معه طفلته الصغيرة. وبعد فترة من الطلاق بدأت أمي تشتاق إلى طفلتها، وبدأ الرجل من جانبه يحاول الإصلاح من خلال بعض الوسطاء، واستجابت أمي لهذه المحاولات لأنها كانت تحبه للأسف.. فأعادها الرجل إلى عصمته مرة أخرى، ورجع للإقامة معنا، لكن الحياة لم تستقم رغم ذلك طويلاً بينهما، فقد كان مازال يتطلع إلى ما بقي معها من ثمن المشروع الصغير.

وحدثت بينهما مشاكل عديدة انتهت بطلب أمي الطلاق منه للمرة الثانية، وتم الطلاق لكنه لم يَطُلْ، فتم الصلح والزواج مرة ثالثة.. وبدلاً من أن يتوقف المسلسل عند هذا الحد، واصل تقلباته فوقع الطلاق الثالث والأخير، وغادر الرجل البيت تاركًا أختنا معنا، وتنفسنا أنا وأخي الصعداء أخيرًا، واسترحنا إلى انقطاع صلتنا بهذا الرجل نهائيـًّـا، ورجعنا للحياة بهدوء وبلا مشاكل ومشاجرات يشهدها الجيران، فلم يمض وقت طويل حتى بدأ الرجل يرسل إلى

أمى رسولاً من طرفه من حين لآخر طالبًا رؤية ابنته، فتذهب إليه أختى كل مرة فى مكان مختلف لأنه كان بلا مأوى دائم بسبب خلافات شديدة مع أهله، وترجع أختى من زيارتها لأبيها فتسألها أمى عن أحواله.. وتجيبها بأنها سيئة للغاية لأنه فقد وظيفته منذ فترة.. ويتَنَقّل بين الفنادق الرخيصة، ولايستطيع العودة إلى بيت أسرته، فتتألم أمى لحال الرجل وترثى له.

وأنا أرقب ذلك وأتوجس شراً مما قد يجره علينا من متاعب، وشيئًا فشيئًا بدأت أمى ترسل إليه مع ابنته طعاما منزليًا شهيًا لأنه - ياحرام - يعيش على الأكل الجاف وطعام المطاعم الرخيصة، ثم بدأت ترسل له من حين لآخر بعض النقود، وتطلب من أختى أن تحضر معها فى المرة القادمة حقيبة ملابسه لتغسلها وتعيدها إليه نظيفة مكوية، وبدأت أعترض على ذلك وأنبه أمى إلى أن علاقتها بهذا الرجل قد انقطعت نهائيًا بالطلاق الثالث، ولاينبغى أن تكون بيننا وبينه أية صلة، فتقول لى: إنه على خلاف دائم مع أسرته ولايجد من يرعى شئونه، وأنها إنما تفعل ذلك لوجه الله فقط لا تريد عليه جزاء ولا شكورا، ولم أقتنع بهذا المبرر، لكنى لم أملك وسيلة لوقف الاتصال به عن طريق أختى، حتى فوجئت بالرجل يُحَمِّل ابنته رسالة برغبته فى أن يتناول الغداء معنا فى موعد حدده، وانزعجت لهذه الرغبة انزعاجًا شديدًا، وأكدت لأمى أن عودته إلى

بيتنا بأى شكل من الأشكال حرام، لأنه رجل أجنبى عنها الآن ولا تربطنا به صلة، لكنها لم تأبه لاعتراضى، وفرحت برغبته، بل وطارت بها فرحا، ونهضت بحماس لإعداد طعام الغداء وأنا فى قمة الغضب والغيظ، وجاء الرجل فلم أحتمل رؤيته فى بيتنا، وغادرت البيت غاضبًا، ورجعت أشد غضبًا وغيظًا، وكررت على أمى ما قلته لها من أن الشرع قد فرق بينهما فراقًا نهائيًا بالطلاق الثالث، لكنى لم أجد منها آذانا صاغية للأسف.

ويومًا بعد يوم تكررت دعوات الغداء فى بيتنا بحضور أختى وأمى حتى أصبحت شبه يومية، وكان الرجل قد عمل عملاً آخر مربحا واستقرت أحواله المالية، فعرض عليها أن يدفع لها ما يدفعه للفندق مقابل إقامته فيه، على أن يعود للإقامة بيننا متظاهرًا أمام الجيران بأنه قد أعادها إلى عصمته لكى تنشأ ابنته بين أبويها، على أن يقيم فى غرفة مستقلة، وعلى ألا تربطه بها أية صلة إلا صلة الأجنبى عنها. . وسألتنى أمى فى ذلك فكدت أنفجر من الغيظ، واعترضت بشدة مؤكدا أن هذا التصرف حرام حرام بكل معنى وكل شكل، بل واضطررت لأن أقول لها مغالبًا حرجى وخجلى كابن وشاب يفهم معنى ما يقوله، وهو أننى أعرف أنها تحبه، وأخشى لو عاش بيننا أن تتجدد صلتها به بشكل أو بآخر. . فبكت بشدة ولامتنى بعنف على سوء ظنى بها، وقالت لى: إنها لا تريد إلا أن تربى ابنتها بمشاركة من

أبيها، وأنها لا يمكن أبدًا أن تقترف ما يسيء إلى شرفها وأبنائها ويثير عليها غضب ربها.

ولم تُجدِ محاولاتى معها فى إثنائها عن قبول هذا الوضع الغريب، وعاد الرجل للإقامة بيننا بعد أن أقنع الجيران أنه قد أعاد (زوجته) إلى عصمته حرصًا على مستقبل ابنته، ولم أعرف أنا ماذا أفعل ولا كيف أواجه هذا الموقف الذى ورطتنى فيه أمى ـ سامحها الله ـ وشيئًا فشيئًا بدأ الرجل يتصرف بإحساس رجل البيت، فيأمر وينهى ويطلب ويتمتع بكل حقوق صاحب البيت فى المأكل والملبس والخدمة مقابل ما بدأ يغدقه على أمى من نقود بسخاء أدار رأسها وفتح شهيتها للصرف والإنفاق، حتى خيل إِلَىّ أنها قد أصابها سعار النقود، وفى هذا الجحيم أعيش يا سيدى منذ فترة وأنا شاب فى الثلاثين من عمرى.. بما يعنيه كل ذلك من اعتبارات محرجة.. وأسمع من حين لآخر أن الرجل قد ثار وسب أمى فى غيابى لشىء قد أخذه عليها فى ملابسه أو خدمته، فيغلى الدم فى عروقى وأهم بالاشتباك معه، فتمنعنى أمى بالإلحاح والبكاء خوفًا من الفضائح، وأسألها متألمًا: وماذا يجبرنا على قبول هذا الوضع المعيب يا أمى؟.. فتقول لى: وكيف نواجه الحياة وما يقدمه لى من نقود يساهم بالقدر الأكبر فى نفقات حياتنا؟ فتلقمنى بذلك حجرًا وأشعر بالعجز لأن معاش أبى

ضئيل ومرتبى صغير ولا يكفى لمطالب أمى التى انفتحت شهيتها فجأة للإنفاق.

إننى أعيش فى لهيب الجحيم وأعرف أن الوضع فى بيتنا خاطئ وغير مقبول بكل الصور، وأشعر بواجبى فى تغييره، لكن ماذا أفعل يا سيدى و(المنكر) الذى لا يستريح ضميرى إلا بتغييره هو أمى نفسها سامحها الله؟

إن أمامى الآن فرصة للإقامة مع بعض زملائى فى العمل فى مسكن مفروش مع ما فى ذلك من تكلفة مادية إضافية لى.. فهل أهجر بيتى وأقيم مع زملائى وأقاطع أمى نهائيًّا؟

وهل لو فعلت ذلك أكون قد عققتها أو أسأت إليها فأستحق بذلك غضبها أو أن تدعو علىَّ ذات يوم بالشقاء والتعاسة والمرض وتستجيب السماء لها؟

إن عقلى يوشك على الانفجار، وأرجو أن تشير عَلَىَّ بالرأى الذى ينتشلنى من هذا الجحيم.. وألا تهمل رسالتى أو تتأفف منها فترفض مساعدتى بالرأى.. فماذا تقول لى؟... وشكرا لك مقدما.. والسلام.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

هناك كلمة حكيمة للكاتب المسرحى الألمانى برتولد بريخت يقول

فيها: تبدأ المأساة حين ينظر الناس إلى الأمر غير العادى كأنه من الأمور العادية، فتصبح القاعدة هى الاستثناء والاستثناء هو القاعدة وتضطرب القيم وتفسد المعايير!

ولأن الأمر كذلك فلابد يا صديقى من أن نتمسك منذ اللحظة الأولى وحتى النهاية برفض كل ما هو غير مألوف ولا مقبول دينيا وخلقيا؛ حتى لا يتحول بمرور الأيام وتأثير العادة إلى أمر من الأمور العادية التى نتعايش معها ونألفها وتألفنا.

والوضع فى أسرتك وفى بيتك غير مقبول ولا مألوف بكل المعايير الدينية والأخلاقية.. ومع تقديرى لما يحيط بالأمر كله من حرج مؤلم لشاب فى مثل سنك، فإن مقاومتك لهذا الوضع لم تكن منذ البداية متكافئة ولا متناسبة مع حجم خروجه على المألوف ولامخالفته للأعراف والقيم السائدة.. فقد اكتفيت بالاعتراض بشدة على قبول والدتك لعودة زوجها السابق للإقامة بينكم وبتذكيرها بمخالفة هذا الوضع للشريعة وأحكام الدين، ثم لم تفعل شيئًا أكثر من ذلك وسكتَّ وأنت كظيم، وقبلت بالحياة وسط الجحيم الذى يجرح مشاعرك، حتى بدأ بمرور الأيام يتحول إلى أمر مألوف، وبدأ الرجل يتصرف بإحساس رجل البيت، فيأمر وينهى ويسخط على أى تقصير فى تلبية مطالبه، بل ويسب ويلعن أيضًا عند الضرورة. وليس هذا سلوك رجل أجنبى اضطرته الظروف للإقامة بين أفراد أسرة زوجته

السابقة، ولا هو سلوك ضيف عابر لا حق له على أصحاب البيت إلا حسن الوفادة.. والمثل الإنجليزى القديم يقول: إنه ليس من حق الضيف أن يعترض على أصحاب البيت، وصاحبك يتجاوز حد الاعتراض إلى ما هو أبعد منه بكثير، وقد كان بمقدورك أن تمنع كل ذلك لو قاومت هذا الوضع الخاطئ ومنعته من البداية وبصلابة وبموقف صارم لايقبل المساومات، والمبررات الواهية.

وقد كانت أبسط الوسائل لتحقيق ذلك هو أن تواجه هذا الرجل إذا عجزت عن إقناع والدتك برفضه، وأن تعلنه أنك لا تقبل إقامته بينكم، وأنك سوف تمنع ذلك بكل السبل المتاحة، والحق والشرع، بل والقانون أيضًا معك فى ذلك، حتى ولو اضطررت لاستخدام سلاح التهديد بفضح أكذوبة عودة والدتك لعصمة هذا الرجل، ولو فعلت ذلك وحده لما جرؤت والدتك على تحدى إصرارك على منع الرجل من دخول البيت أصلا، ناهيك عن إقامته بينكم إقامة دائمة.

أما المبرر المادى الذى تقدمه لك والدتك، والذى تقف أنت أمامه شاعرًا بالعجز والضآلة.. فهو ليس سببًا جديًّا ولا مقبولاً بأية حال من الأحوال. وحتى ولو كان كذلك لما أعفاك من مسئوليتك العائلية والدينية والأخلاقية عن منع هذا الوضع الخاطئ والتصدى له بكل حزم، فلقد كنتم تعيشون بمعاش أبيك ومرتبك الصغير وببعض المدخرات الباقية من تصفية المشروع التجارى قبل عودة هذا الرجل

للإقامة بينكم، فماذا جدَّ فى أوضاعكم حتى أصبحت مساهمته المادية فى ميزانية أسرتكم ضرورية وملحة ولا يمكن الاستغناء عنها كما تحاول والدتك إيهامك بذلك؟ . . . لقد كانت تمد هذا الرجل نفسه قبل فترة قصيرة بمساعدتها المادية خلال فترة تعطله. . . فكيف أصبحت إقامته بينكم بعد شهور ضرورة حياة لاستمرار مساهمته المادية فى نفقات الأسرة؟

وحتى لو افترضنا ذلك، فإن الرجل مسئول شرعًا وقانونًا عن كل تكاليف حياة ابنته التى تعيش بينكم، وما يدفعه لوالدتك هو حق لابنته عليه لايتطلب أن يقيم معكم، ولو امتنع عن أدائه لوالدتك فهناك أكثر من وسيلة لإجباره على ذلك. ولا حد فى النهاية لمطالب الإنسان المادية مهما كان مستوى دخله لو استسلم لرغباته وتطلعاته وتفتحت شهيته للإنفاق وللحياة، فمطالب الحياة واحتياجات الإنسان بحر بلا شطآن، فهل يعنى ذلك أن يسلم الإنسان بما يخالف أوامر ربه ونواهيه ويقبل بالدَّنِيَّة فى دينه ودنياه بمبرر احتياجاته المادية. . ضرورية كانت أم ترفيهية؟

إنك تسألنى فى النهاية: هل تهجر بيتك وتقيم مع زملائك وتقطع كل صلة لك بأمك؟. . وهل تكون قد عققتها إذا فعلت ذلك؟. . وهل تستحق بذلك غضبها وغضب السماء لغضبها عليك؟

وجوابى هو أنك تكون قد عققت أمك حقًّا وصدقًا إذا تركت

هذا الوضع الخاطىء فى بيتك، وفررت من مواجهته ومن مسئوليتك عن إيقافه وتغييره بكل السبل المتاحة لذلك، ومنها استنفار أخيك الذى لا أدرى أين اختفى ولا ما هو موقفه مما حدث لمساندتك فى هذا الأمر.

وثق أن والدتك لو استشعرت (ضراوة) إصرارك على تغيير هذا الوضع الخاطئ وأنك لن تسكت على استمراره يومًا واحدًا بعد الآن، لما ملكت إلا الاستجابة لإرادتك، ولأنهت هذا الوضع الشائن راضية أو ساخطة، ولا يهم كثيرًا فى هذا الأمر رضاها ولا سخطها لأنك إنما تسعى إلى نيل رضا من هو أعظم قدرًا وأجل شأنًا سبحانه وتعالى.. فضلا عن استعادة ثقتك فى نفسك وراحة ضميرك..

أما خشيتك من غضب السماء عليك إذا قاطعت أمك، فلست أرى لك مقاطعتها إلا إذا استنفدت كل الوسائل لإرجاعها عن الخطأ واستحالت الحياة بينكما، وطالبتك هى بهجر البيت تمسكًا بالخطأ وإصرارًا عليه.. ففى هذه الحالة فقط لا أرى لك البقاء فى البيت وأؤيدك فى هجره ومقاطعته نأيًا بنفسك عن معايشة الخطأ والسكوت عليه، فيكون هجرك للبيت رادعًا آخر عاطفيًّا وإنسانيًّا لوالدتك لحثها على تغيير هذا الوضع الخاطئ.

والسماء فى النهاية لا تغضب لغضب من يجترئ على حدود ربه فيسخط على من لا يقرونه عليه، ولا ترضى لرضا المجترئ على

هذه الحدود عمَّن يقرونه على الخطأ أو يسكتون عليه. . فالله جل شأنه هو العدل إسمًا ومعنًى سبحانه، و«إنما يتقبل الله من المتقين» وليس من الخطاة ولا ممن يريدون قلب الأوضاع والمعايير، فيجعلون من القاعدة استثناء ومن الاستثناء قاعدة، وعفوا لأية كلمة شاردة قد أكون قد آلمت بها مشاعرك من حيث لم أرد ولم أحتسب، فالحق أننى قد كرهت رسالتك هذه من البداية، واعتزمت تجاهلها لما تحمله من معان غير مريحة، لكنك أرسلتها إلىّ مرتين وألححت عَلَىَّ فيهما ألا أتجاهلك وأن أشير عليك بما ينقذك من الجحيم الذى تعيش فيه. . وأرجو أن أكون قد فعلت. . والسلام.


قطب

(٢)
ثمن الحرمان

«إنَّ خير ما ننتقم به ممن أساءوا إلينا
هو ألا نصبِح مثلهم، وألا ننجرف
إلى نفس صَغَارهم ودناياهم معنا!».

لا أعرف ماذا ستقول عنى بعد أن تقرأ هذه الرسالة.. لكنى أكاد أجزم بشىء واحد، هو أنك ستهتف بينك وبين نفسك قائلا: سبحان الله! ثم تقول لى بعدها ما تشاء من رد أو تعليق.. وأبدأ معك القصة من البداية فأقول لك: إننى قد تعرفت بها وهى تعمل خارج مصر.. وتآلفنا سريعا واتفقنا على الارتباط.. وتم الزواج بالفعل وبدأنا حياتنا الزوجية، ثم ما لبثت أن رجعت إلى مقر عملها لتقضى العام الأخير من إعارتها، وانتهى العام سريعًا أو بطيئًا لست أدرى.. ورجعت زوجتى، فإذا بها تدخر لى مفاجأة غير متوقعة هى فرصة عمل فى نفس البلد الذى كانت تعمل به، ولم أكن فى الحقيقة شديد التحمس للسفر، فعملى فى بلدى مستقر ودخلى منه لا بأس به، وزوجتى كما يقولون (مستورة) ولديها رصيد فى البنك، وقد تزوجنا فى الشقة التى تملكها ولم ننجب بعد، لكن زوجتى أقنعتنى

بضرورة السفر لتأمين مستقبلنا أكثر وأكثر، وألحَّت عَلَىَّ بتأجيل الإنجاب إلى أن تنتهى فترة غربتى ونرجع للاستقرار معا فى مكان واحد، واقتنعت بمنطقها الحكيم.. وسافرت وفى نيتى ألا تطول غربتى عن عامين، وعشت وحيدًا أؤدى عملى بإخلاص، وأرسل إلى زوجتى ما يزيد على متطلبات حياتى من نقود كل شهر لتضعها فى حسابها فى البنك.. فليس لى حساب باسمى، ولم يتسع الوقت لأن أفتح لنفسى حسابًا جاريًا قبل السفر، وزوجتى محل ثقتى..وهدفنا واحد وهو تأمين مستقبلنا معا، ومضى العام الأول والثانى أيضا على نفس الوتيرة.. والخطابات متصلة بينى وبين زوجتى.. أبثها شوقى وتبثنى لهفتها على اجتماع شملنا ذات يوم قريب، وبدلاً من أن أكتفى بعامين من الغربة كما خططت لنفسى، انسقت وراء إغراء تأمين المستقبل، وللرغبة فى الاستفادة القصوى من الفرصة التى قد لا تتكرر مرة أخرى.. فمضى عام ثالث ورابع حرصت خلالهما أيضًا على تحويل كل مدخراتى إلى زوجتى فى مصر، ثم انتهى عقدى أخيرًا، فرجعت راضيًا عن نفسى وحياتى ومتلهفًا على الحياة والاستقرار فى بلدى وبين أهلى وبجوار زوجتى بعد طول العناء.. فلم تمض بضعة أيام.. أى والله يا سيدى بضعة أيام وليس شهورًا.. حتى فوجئت بزوجتى تطالبنى بالطلاق! لماذا.. وماذا حدث بيننا من مشاكل أو خلافات ونحن لم نلتق طوال أربع سنوات سوى فترات قصيرة للغاية؟ لا جواب سوى طلب الطلاق

والإصرار عليه، وجن جنونى وحاولت أن أعرف سر هذا الانقلاب المفاجئ.. وسألت وتحرَّيت، فقيل لى: إن هناك مشروعًا قديمًا للزواج سبق ارتباطى بها وفشل لأسباب لا أعلمها، وأنه قد تم إحياء هذا المشروع القديم فى الفترة الأخيرة من غربتى، ولم يبق إلا التخلص من العقبة التى تعترضه وهى الزواج الحالى.. لهذا كان طلب الطلاق والإصرار عليه دون إبداء أسباب!

ولم أواجه زوجتى بما سمعت، فقد كرهت لنفسى أن أستجدى إخلاصها لى.. وقررت أن أستجيب لطلبها للطلاق بعد تسوية الأمور المعلقة بينى وبينها، وأهمها مدخراتى التى حوَّلتها إليها فى أربع سنوات، فإذا بها تقول لى بجرأة عجيبة إنه لا حق لى فى معظمها.. لأنها (ثمن الحرمان) الذى تحملته راضية طوال أربع سنوات وهى تعيش وحيدة، وأنه بعد خصم مؤخر صداقها ونفقتها لمدة عام ونفقة المتعة.. و (فارق) ثمن الشبكة التى كان ينبغى أن أقدمها لها وليست تلك التى قدمتها، و(فارق) المهر اللائق بها وليس ذلك المهر الاسمى المتواضع الذى دفعته، وبعد خصم بعض التكاليف الإضافية للزواج التى تحملتها هى متطوعة وبغير أن أطالبها بذلك، وخصم (ثمن الحرمان) الذى لايقدر بمال، فإنه لا يبقى لى من شقاء غربتى لديها إلا حوالى الربع فقط، وسوف تدفعه لى راضية بمجرد إتمام الطلاق.

ذهلت لما سمعت واسودت الدنيا فى عينى، ولم أَدْرِ ماذا أفعل وأنا أرى شقاء غربتى يضيع أمامى، إلى جانب ما أحس به من هوان وطعن لرجولتى، فلجأت إلى الوسطاء بيننا لنتوصل معًا إلى حل عادل لا تغتصب به مالى وشقاء غربتى ولا يبخسها فى نفس الوقت حقها، فلم تفلح أية مساع للتوفيق بيننا، ويئست تماما من محاولات التوفيق، فسلمت بالهزيمة والعجز، وجمعت كل ملابسى وأوراقى وهجرت بيت الزوجية، ورجعت إلى بيت أمى أجر ورائى أذيال الخيبة وأشعر بقهر مرير.

ومضت ثلاثة أيام أكاد أجزم بأننى لم أَذُقْ خلالها طعم النوم، فإذا بزوجتى تتصل بى لتطالبنى بالإسراع بإجراءات الطلاق، ولم يكن أمامى مفر سوى الاستجابة، فنهضت لأبحث بين أوراقى عن قسيمة الزواج لأطلقها وأستخلص منها بعض مدخراتى بحسابها الظالم، ورحت أقلب بين الأوراق، فإذا بى أعثر بينها على توكيل قديم موثق فى الشهر العقارى منحته زوجتى لى خلال عام زواجنا الأول لكى أسحب من حسابها بالبنك مبالغ أسلِّمها لوالدها ووالدتها حسب رغبتهما، ونظرت إلى هذا التوكيل القديم الذى لم أره ولم أستعمله منذ ٤ سنوات وأنا أرتجف وأتصبب عرقًا، وتساءلت: ترى هل أراد لى الله أن أحفظ به حقى من الاغتصاب؟ لقد غبت أربع سنوات لم يَرِدْ خلالها ذكر هذا التوكيل على لسانى أو لسان زوجتى مرة

واحدة.. فلماذا تجاهلته هي؟ هل لأنها قد ألغته بغير أن أدرى وأبطلت أثره؟ أم هل لأنها أبلغت البنك بعدم صرف أية مبالغ من حسابها بمقتضى أي توكيل من أى نوع؟ لم أعرف شيئًا من ذلك.

وكان الوقت ـ حين عثرت على هذا التوكيل ـ قرب الفجر، فلم أطق صبرًا على البقاء فى البيت، ونهضت فارتديت ملابسى وغادرت بيت والدتى إلى شوارع القاهرة أجوبها ذاهلاً ومتفكرًا، وأجلس فى مقاهيها الساهرة لأقطع الوقت، حتى أشرق الصباح بنوره على المدينة، وتعجلت الوقت أن يتحرك بكل لهفة إلى أن جاءت الساعة الثامنة والنصف، فكنت أول من دخل البنك ومعى جواز سفرى وبطاقتى الشخصية، وقدمت التوكيل لموظف البنك وأنا أترقب فى كل لحظة أن يصدمنى بأن لديه ما يمنعه من صرف أية مبالغ به، فإذا به يقدم لى أمر دفع ويطلب منى أن أسجل به ما أريد من النقود، فأمسكت بالقلم وغالبت ارتعاش يدى حتى أستطيع السيطرة عليه، وكتبت الرقم الذى يمثل كل مدخراتى فى السنوات الأربع بدون العدوان على مليم واحد من مالها وقدمته لموظف البنك، فاستمهلنى لحظات مضت وكأنها دهر، ثم فوجئت به يضع أمامى رزم أوراق البنكنوت ويقدم لى مظروفًا كبيرًا لأضعها به، فتنفست الصعداء وحملت المظروف، وغادرت البنك وأنا أشعر بأن الدماء قد سرت من جديد فى عروقى، وأننى قد استعدت حيويتى التى فقدتها تمامًا خلال الأيام الثلاثة الماضية.

ومن البنك توجهت مباشرة إلى مكتب المأذون وانتظرته حتى جاء وأتممت الطلاق، ثم رجعت إلى بيتى خفيفًا كالطائر المرح، واتصلت بزوجتى وأبلغتها بما فعلت بالتفصيل.. وأعلنتها أن ورقة الطلاق فى الطريق إليها، وأن التوكيل لَدَىَّ ينتظر أن ترسل لى من يتسلمه منى لأننى لا أغتصب مال أحد؛ فهاجت وماجت وتوعدت وهددت وبكت، وأنا صامت وسعيد ومبتهج.. وانتهت المكالمة.. وعلمت فيما بعد أنها قد اتصلت بزوج المستقبل وطالبته بأن يفعل شيئًا ليعيد به إليها (مالها)، فأعلنها بعجزه عن أن يفعل أى شىء.. لأن ما فعلته أنا كان بمقتضى توكيل قانونى موثق ولا شىء فيه من الناحية القانونية.

ألم أكن على حق حين قلت لك فى البداية إنك ستقول حين تقرأ هذه الرسالة: سبحان الله!

نعم سبحان الله يا سيدى والحمد لله.. والله أكبر على كل من طغى وتجبر، فقد انقلبت الآية، وبعد أن كنت أشعر بالقهر والذل والمرارة وأنا أتوسل إليها لكى لا تحرمنى من معظم ثمرة شقائى، أرسلت هى إِلَىَّ - بعد أن يئست من أية وسيلة أخرى - نفس الوسطاء الذين فشلوا من قبل فى إثنائها عن رأيها لكى يناشدونى باسمها وباسم (العشرة الطيبة) التى كانت بيننا أن أؤدى إليها حقها الكامل فى مؤخر الصداق والنفقة ونفقة المتعة، إلى جانب تعويض عادل

رأته وحددته هى مقابل التكاليف الإضافية للزواج التى تطوعت بأدائها دون طلب منى لكى نفترق بلا ضغينة، ولكى تبقى الذكرى الطيبة لكل منا لدى الآخر. . فتذكرت الليالى السوداء التى أمضيتها بلا نوم، وتذكرت ذلى وقهرى وإحساسى بالهوان وأنا أسمع بمشروع الزواج القديم الذى تم (إحياؤه) فى غيابى، ولم أجد من رد أقوله لهؤلاء الوسطاء سوى: أمامها المحكمة فلتلجأ إليها وسأقبل راضيًا حكمها العادل، أما ما عدا ذلك فلا تفاهم ولا مودة مع من طعنتنى فى ظهرى وحاولت اغتصاب مالى. وأعطيت الوسطاء التوكيل وانصرفوا فاشلين فى مهمتهم. فما رأيك فيما فعلت يا سيدى؟. . ألا توافقنى فى أنه من حقى أن أرفض التفاهم معها وديًّا على دفع مؤخر الصداق والنفقة، ناهيك عن رفضى البات لدفع ما أسمته بالتعويض العادل، وأن أتركها تذهب إلى المحكمة وتتردد على جلساتها، حتى تعى الدرس ولا تَتَجبَّر بعد ذلك على أحد؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

نعم قلت: سبحان الله تعليقًا على رسالتك وعلى سرعة تغيير المواقع فى قصتك بين من كان يمسك بيده خيوط القوة ويملى رغباته ويفرض تسويته الظالمة ولا يقبل فيها رجاءً ولا مراجعة، وبين من كان لايملك إزاء جبروت القوة سوى الإحساس بالعجز المهين والقهر المرير، لكنى أقول لك بعد ذلك إنه من تمام الشكر لله ـ سبحانه

وتعالى ـ على نصره لك ورده لكيد الكائدين بك إلى نـحورهم. . ألا تستسلم لإحساس الزهو بالانتصار والاعتداد بإحساس القوة فيجرفك ذلك إلى موقف التعنت، ورفض أداء الحقوق لأصحابها التى كنت قبل قليل ضحية له وتستجير بالسماء لإنصافك منه. ذلك أن أسوأ ما فى النفس البشرية ـ كما يقول لنا المؤرخ الإنجليزى أرنولد توينبى ـ هو أن نفعل نحن بالآخرين ما كنا نجأر بالشكوى من ظلمه وجبروته قبل حين.

وقد استلفت نظر المستشرق الألمانى الدكتور مراد هوفمان خلال دراسته للقرآن، أن سورة النصر تأمر المؤمنين ألا يتملكهم الزهو ساعة النصر، وأن يستغفروا ربهم فى خشوع يذكرهم بأن النصر من عند الله، وأن للمهزومين حقوقًا إنسانية ينبغى الوفاء لهم بها مهما كان من سابق عداوتهم وجبروتهم قبل انكسارهم. فالسورة الكريمة تبدأ بمقدمة منطقية هى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾. . أما النتيجة المنطقية المترتبة عليها فليست مما يمكن أن يخطر بوجدان بشر فُطروا على التخاذل والانكسار عند الهزيمة، وعلى الزهو والشموخ عند الانتصار، فتقول:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، وقال الدكتور

هوفمان فى تعليقه على هذه السورة التى توقف أمامها مذهولاً ومتعجبًا: إن التاريخ الإنسانى كله كان من الممكن أن يتغير وأن يتجنب العالم ويلات الحرب العالمية الثانية لو كان الحلفاء المنتصرون على ألمانيا القيصرية فى الحرب العالمية الأولى قد عملوا بنصيحة سورة النصر فى محادثات فرساى ١٩١٩ عقب انتهاء الحرب بهزيمة الألمان، ولم يستسلموا لشهوة الكراهية والرغبة فى الانتقام من ألمانيا وإذلالها، مما بذر بذور الثأر فى نفوس الألمان وأدى إلى بزوغ نجم هتلر واشتعال الحرب العالمية الثانية بعد عشرين عاما!

وأنت يا صديقى قد انتصرت بفضل من الله واستردت مالك، فلا تدع زهو النصر وغرور القوة يجرفانك إلى ارتكاب نفس الخطيئة التى ارتكبتها معك زوجتك حين أرادت أن تفرض عليك تلك التسوية الظالمة لما زعمته من حقوق لديك، وأغربها «ثمن الحرمان». . هذا، وخير ما تفعل هو أن تسرع بطى هذه الصفحة المؤلمة كلها من حياتك لتبدأ صفحة أخرى واعدة بالسعادة والأمان بإذن الله. . ولن يتحقق لك ذلك إلا إذا تخلصت من كل ذيول المشاكل المعلقة بينك وبين مطلقتك، وإلا إذا ترفعت عن شهوة الانتقام منها والإعسار عليها فى نيل حقوقها المشروعة ومنازعتها فيها، فليس كالعدل حامٍ للحقوق، ولا حافظ لسلام الإنسان النفسى، وكلما كانت تسوية أى نزاع عادلة

خفت حدة الضغائن. . وفقد الخصوم أية دوافع للانتقام منا، فنحيا حياتنا فى سلام.

«فَسَبِّحْ بحمد ربك» يا صديقى أن نصرك على من أرادت اغتصاب مالك وثمرة شقائك. . واستغفره من همس النفس الأمارة بالسوء لك بالاستسلام لشهوة الانتقام والامتناع عن أداء الحقوق، واحتفل بنصرك المبين بأن تخلص ضميرك من كل عبء عليه، فتتمتع بسلامة النفس، وتتهيأ لاستقبال السعادة التى ستعوضك بها الحياة قريبًا بإذن الله. . وإذا كان لزوجتك السابقة عليك أية حقوق مادية عدا مؤخر الصداق والنفقة فلا تتردد فى أدائها إليها وبالطريق الودى بعيدًا عن المحاكم وعنائها، وثِقْ أنك إن فعلت ذلك فإنك لا تريح ضميرك وربك فقط، بل وتنتقم أيضًا من مطلقتك بإشعارها بفداحة الفارق بين قِيَمِك الأخلاقية وقيمها، وبعمق خسارتها لك. والإمبراطور الرومانى الحكيم ماركوس أورليوس كان يقول: إن خير ما ننتقم به ممن أساءوا إلينا هو ألا نصبح مثلهم. . وألا ننجرف إلى نفس صَغَارهم ودناياهم معنا. فافعل ذلك بلا تردد، وانتقم منها بألا تكون مثلها. . وترقب بعد ذلك تعويض السماء لك عما تكبدته من آلام، ولن يطول بك الانتظار حتى ترى بشائره بإذن الله.

(٣)

شجرة اللبلاب

«إن الله يساعد أولئك الذين يساعدون أنفسهم، ويحجب عونه وتَوفيقَه عمن لا يساعدون أنفسهم وينتظرون من الآخرين أن يقوموا عنهم بكل شىء!».

أنا يا سيدى شاب فى السابعة والأربعين من العمر، حصلت منذ ربع قرن على بكالوريوس التجارة، وفى نفس العام الذى تخرجت فيه توفى والدى ـ رحمه الله ـ وآل إِلَىَّ بالميراث بعض الأطيان الزراعية فى بلدة الأسرة بالريف، وبعض العقارات فى القاهرة حيث أقيم، وبعض النقود السائلة بالبنك، وكان العائد المادى لكل ذلك ـ وما زال ـ كافيًا للوفاء بمتطلبات حياتى التى لاتخرج عادة عن شراء الكتب الثقافية، والتنزه ليلا فى الأماكن الراقية، والاستمتاع بطيبات الحياة المشروعة فيما لا يخالف تعاليم دينى.

ولقد عشت طوال هذه السنوات حياة الفراغ وحيدًا فى مسكنى

بأعلى عمارتى المطلة على نيل القاهرة، لا أنيس ولاجليس سوى سيدة مسنَّة تدير شئون بيتى، وشغالة تحضر كل صباح لتنظيف الشقة وشراء المشتريات. . يومى كأمسى وكغدى لا اختلاف فيه ولا تجديد، أصحو من نومى فى الرابعة من بعد الظهر لأبدأ «يومى» الذى لا شاغل لى فيه سوى القراءة والنزهة وارتياد المسارح ودور السينما والدردشة مع بعض الأقارب، والاستماع للإذاعات العالمية حتى تنهى إرسالها فى الفجر، فأستسلم للنوم حتى عصر اليوم التالى وهكذا!

وقد أفقت لنفسى منذ بضع سنوات، فإذا بى أجد نفسى وحيدًا فى الحياة وكل إخوتى وشقيقاتى متزوجين ويعملون بمناصب براقة ويعيشون مع زوجاتهم وأزواجهم وأبنائهم الذين يحبونهم بالفطرة وليس «بالأجر» كما يفعل من يتعاملون معى، فحسمت ترددى وقررت أن أتزوج، وأنجب الأبناء لتكون لى أسرتى الصغيرة كإخوتى، ولم أجد ما يمنعنى من تحقيق هذه الرغبة؛ فأنا ـ والحمد لله ـ أمتلك كل مواصفات العريس المرغوب الذى تتخاطفه الأسر الكريمة، إذن فلايبقى أمامى إلا أن أحدد «شروطى» فى زوجة المستقبل، فحددتها فى أن تكون فتاة صغيرة السن وجامعية وجميلة وجذابة ومثقفة، ورأيت هذه الشروط عادلة وليست مغالية، فأعلنتها لكل أقاربى ومعارفى، فلم يكن عسيرًا عليهم أن يرشحوا لى كثيرات تتوافر فيهن هذه الشروط. وتقدمت لأول فتاة منهن، فإذا بها

ترفضنى هى وأسرتها بعد قليل، وتقدمت للثانية والثالثة والرابعة فإذا بكل من رشحهن لى الأقارب يرفضننى جميعًا هن وأسرهن.. فهل تدرى لماذا؟ لأنه ليس لى عمل محدد أقوم به فى الحياة، ولأن كل دخلى يأتينى من إيراد ما ورثته عن أبى، والذى يديره ويقوم بتحصيل إيجاراته نيابة عنى شقيقى الأكبر!

فأى عيب فى هذا يا سيدى؟

لقد تعجبت لرفض هذه الأسر مصاهرتى.. فتنازلت عن بعض شروطى، وتقدمت لفتيات مناسبات من حيث السن والثقافة والجمال ولكن من أسر أقل فى المستوى الاجتماعى والمادى من أسرتى، فإذا بهن يرفضننى أيضًا لنفس هذا السبب «العجيب» وهو أننى لا أعمل وأكتفى بإنفاق إيراد أملاكى!

فتساءلت: ما هذا «العمل» الذى تتمسك به كل الأسر الغنية والفقيرة وتسألنى عنه؟ وقررت أن أخرج من قوقعتى وأنزل إلى معترك الحياة لأكسب مالاً من عرق جبينى لأول مرة، أو على الأقل لحين أتزوج، ثم ليكن ما يكون من أمرى بعد ذلك.. فإذا بى أجد أننى قد تجاوزت منتصف الأربعينيات وليست لى أية خبرة سابقة بأى عمل جِدِّىّ من قبل، إلى جانب مشكلة أخرى «بسيطة» هى أن كل الأعمال المحترمة تبدأ فى الثامنة أو التاسعة صباحًا، وأنا لا أصحو من نومى قبل الرابعة مساءً.

وهكذا عرفت الوجه الآخر من «التعاسة» التى لا ترتبط بقلة الإمكانيات، والتى ذكرتنى بما قرأته فى ردودك من أنه «يبدو أن البشر أتعس كثيرًا مما نظن»، وأنه «لن يستريح الإنسان إلا فى قبره، مهما كان نصيبه من الفقر أو الثراء..».

فأنا الآن رجل وحيد فى السابعة والأربعين من عمره.. لا يستطيع الزواج رغم توافر إمكانياته لديه.. ولايستطيع العمل رغم شهادته الجامعية واستعداده لأن يتقاضى أجرًا رمزيًّا أو حتى أن يتنازل عن أى أجر.

وها أنا أكتب إليك لتخرجنى من دوامة التعاسة والوحدة والإحساس بانعدام الدور التى أعيش فيها الآن، وأسألك متحيرًا:

لماذا ترفض الأسر الطيبة ـ حتى الفقيرة منها ـ تزويج بناتها لشاب مستقيم حسن المظهر وهادئ الطباع وعلى درجة طيبة من الثقافة ولديه دخل حلال كاف لإعالته وإعالة أسرته فى مستوى معيشة جيد؟ لماذا ترفض هذه الأسر شابًا مثلى له هذه الظروف لمجرد أنه لا عمل له ومكتوب فى بطاقته أنه حاصل على بكالوريوس التجارة؟

ولماذا ترفض أماكن العمل المحترمة قبولى للعمل بها ولو بمرتب رمزى ـ أو بلا أجر على الإطلاق ـ بشرط أن أذهب للعمل فى المساء كل يوم؟

إننى أرجو أن تشير علىّ بما أفعل لأكون إنسانًا نافعًا ومقبولاً من الأسر الطيبة، وأرجو أن تترفق بى وألا تكرر علىّ نصيحة الأهل والأقارب بأن أصحو فى الصباح المبكر كل يوم وأنزل إلى نهر الحياة لأسبح فيه مع السابحين، لأنى لا أستطيع ذلك حقيقة.. كما أرجو أيضًا ألا تنصحنى بأن أشغل نفسى بإدارة أملاكى ورعايتها وتنميتها بدلاً من أخى الأكبر الذى يقدر على ذلك ولا أستطيعه أنا، لأننى كشجرة اللبلاب تحتاج دائمًا إلى دعامة تستند إليها لتنمو ولاتستطيع أن ترتفع بغير هذه الدعامة، فأَشِرْ علىَّ بما تراه فى صالحى وسوف أنفذ ما تشير به حرفيًّا إن شاء الله..

فماذا تقول لى؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لا أظن أننى سوف أشير عليك بشىء تستطيع تنفيذه حقًّا لأنك ـ وعفوًا لصراحتى ـ تفتقر إلى شىء جوهرى هام، هو الإرادة القوية المحركة للإنسان، والقادرة على تحويل أمنياته وأفكاره إلى خطوات عملية..

ولأن الأمر كذلك، فسوف أكتفى بتفسير ما يبدو لك «عجيبًا» و«غامضًا» من حقائق الحياة، لعل لذلك يعينك ـ إذا استجمعت إرادتك ـ على الخروج من قوقعتك والنزول إلى بحر الحياة.

إنك تتعجب مثلاً من رفض الأسر الكريمة ـ حتى الفقيرة منها ـ لشاب له مؤهلاتك المادية والعائلية والاجتماعية لمجرد أنه لا عمل واضحًا له فى الحياة، ويكتفى بإنفاق إيراده من ميراثه الذى يديره نيابة عنه شقيقه الأكبر.. وتفسيرى لهذا «اللغز» هو أن السر فى «اللبلاب» وليس فى أنك بلا عمل محدد وتعيش على عائد أملاكك، فأنت ـ كما تعترف ـ لا تستطيع حتى أن تقوم بتحصيل إيجارات أطيانك الزراعية، ولا تقدر على إدارة أملاكك وتنميتها لأنك شجرة لبلاب تحتاج دائمًا إلى دعامة تقيم عودها وتحول بينها وبين التداعى، والأسرة ـ أية أسرة ـ غنية كانت أو فقيرة تريد لابنتها «دعامة» تقيم ظهرها وتشاركها مسئولية الحياة وتحميها من غوائلها، لا شجرة لبلاب تحتاج هى نفسها لما يقيم أودها ويحميها من السقوط.. فما وجه العجب فى ذلك؟

ثم إنك قد حددت «شروطك» فى عروس المستقبل، وكان أولها أن تكون فتاة صغيرة السن، وهذا يعنى أنك تتقدم لفتيات يصغرنك بعشرين أو خمس وعشرين سنة فى الأغلب الأعم.. فما وجه الغرابة فى أن يرفضنك لهذا السبب وحده إلى جانب السبب الآخر الأهم وهو طبيعة اللبلاب المتمكنة منك؟

أليس عجبك هذا ذهولاً آخر من جانبك عن حقيقة أساسية هامة من حقائق الحياة، وهى أنك كهل فى السابعة والأربعين من العمر

وقد فاتك قطار الزواج فى سن الشباب ولا ينبغى لك أن تتطلع للارتباط إلا بمن تصغرك ببضع سنوات لا تزيد ـ إن زادت ـ على العشر؟

إن رفض الأسر الفقيرة لك رغم مميزاتك المادية لا ينبغى أن يثير عجبك أو يدهشك، لأنه دليل يرفع المعنويات. على أن سُلَّم القِيم فى مجتمعنا ما زال معتدلاً ولم ينقلب رأسًا على عقب بحيث يصبح المال هو القيمة الوحيدة فى الحياة، فالمال وإن تزايدت أهميته بالفعل عند التقييم إلا أنه لا يكفى وحده لانبهار أسرة طيبة فقيرة براغب فى ابنتها ما لم يكن ملائمًا لها من ناحية السن والمواصفات الشخصية. وعلى أية حال فإن حل مشكلة زواجك لا يستعصى عليك إذا اعترفت بحقائق الحياة وتنازلت عن طلب الحد الأقصى من الأشياء فى شريكة العمر.. وقبلت بمن هى أقرب إليك فى السن وأقدر على شد دعامة ظهرك فى مواجهة الحياة.

أما مشكلة العمل فهى وجه آخر من وجوه الانفصال عن الواقع الذى تعيش فيه، إذ أين هو مجال العمل اللائق بك والذى لا يفتح أبوابه إلا فى الليل... اللهم إلا إذا كان ملهى ليليًّا أو مسرحًا؟ نعم هناك أعمال يستمر العمل فيها ليل نهار وعاملون يعملون فى الليل، لكنهم يعملون أيضًا فى الصباح فى نوبات دورية، أو كلما تطلبت حاجة العمل ذلك، فكيف تتصور أنك تستطيع أن تتقدم إلى

جهة عمل محترمة مشترطًا عليها ألا تعمل إلا فى الليل؟ وأى مبرر تستطيع أن تبرر به هذا المطلب؟ ولو سمعه منك أى صاحب عمل أو مسئول لرفض عملك معه على الفور ولو دفعت أنت مرتبًا شهريًّا لجهة العمل، إذ كيف يستطيع أى مسئول عن عمل أن يثق فى جدية إنسان يصارحه بأنه يريد عملاً فى الليل، فقط لأنه لا يستطيع ـ مهما حدث على ظهر كوكب الأرض ـ أن يصحو من نومه قبل الرابعة مساء؟

يا صديقى.. انس قضية العمل هذه، فأنت لن تعمل فى أى مجال إلا إذا تخلصت من شلل الإرادة وفشل الروح اللذين تمكنا منك خلال سنوات الفراغ الطويلة التى أهدرت فيها زهرة العمر، ولو كنت جادًّا فى العمل لعملت ـ وأنت خريج تجارة ـ كمحاسب فى أحد مكاتب المحاسبة بعد الظهر.. لكنك فى الحقيقة لا تريد عملاً، وإنما لقبًا ووظيفة شكلية.

والأفضل لك أن تبدأ بمحاولة تحمل مسئولية نفسك وإدارة أملاكك وإعفاء شقيقك الأكبر من عبئها ولو بالتدريج، وربما تستطيع إذا «نجحت» فى هذا الاختبار أن تسترد ثقتك فى نفسك وثقة من حولك فيك، فيفتح لك ذلك مجالات عمل أخرى.. فابدأ ذلك وتخلص من عادات الفراغ الضارة، ومن قيمها وانعكاساتها السلبية على الشخصية، والتى أتصور أنها كانت فى حساب من تخوفوا من

مصاهرتك.. فالفراغ التام وانعدام الهدف فى الحياة أخطر على الإنسان من المرض، لأنه يورث النفس ما يسميه المفكر الفرنسى مونتسكيو عجز الروح عن أن يحركها شىء أو يثير حماسها شىء، ومن آثاره أيضًا المغالاة فى الاهتمام بصغائر الأمور وتوافه الحياة واللجج فى الخصومة، والحساسية المرضية تجاه ما لا يثير لدى المنشغلين بأمور الحياة الجادة أية حساسية، فضلاً عن أمراض الوحدة والعزوبية المزمنة، ومن أهمها انحصار الاهتمام فى الذات والعجز نفسيًّا عن العطاء للآخرين، وإدمان ترقب أن يقدم الآخرون لهذه «الذات» كل ما ينبغى عليهم أن يقدموه لها من قرابين

فتخلص يا صديقى من هذا الفراغ الضار، واشغل نفسك بشىء مفيد للحياة.. وما أكثر الجمعيات الخيرية وأعمال الخدمة العامة والتطوعية التى يمكن أن تستوعب طاقتك وتشغل أوقاتك إذا كنت حقًّا تريد أن تكون نافعًا للحياة.. وقديمًا قيل: إن الله يساعد أولئك الذين يساعدون أنفسهم.. ويحجب عونه وتوفيقه عمن لا يساعدون أنفسهم وينتظرون من الآخرين أن يقوموا عنهم بكل شىء.



(٤)

الوجه البرىء

«نهر الحياة سريع، ويجرف فى طريقه كثيرًا من الآلام والأحزان التى تجمدنا أمامها فى بعض الأحيان وتخيَّلنا أنها كالجنادل التى لا يزحزحها التيار».

لست أدرى من أين أبدأ قصتى.. هل أبدؤها من حيث بدأت، أم من حيث انتهت؛ على أية حال فإنى سأعود بك للوراء قليلاً لتدرك كل الظروف المحيطة بمشكلتى.. فأنا شاب جامعى قاربت السابعة والعشرين من العمر، نشأت بين أبوين طيبين وأخ يصغرنى بأربع سنوات، ومضت حياتنا فى هدوء وسلام، وتقدمت فى دراستى بلا مشاكل، وسعد أبواى بتفوقى ونجاحى، لكن أخى الأصغر لم تسمح له قدراته ـ للأسف ـ بتكرار تفوقى الدراسى، فلم يُثِرْ أبى ـ المؤمن بأن لكل إنسان نصيبه فى الحياة ـ مشكلة بسبب ذلك، وإنما واجه الأمر بواقعية وساعد أخى فى الالتحاق بمعهد تدريب صناعى، وأكد

له أن الإنسان يستطيع أن يكون ناجحًا ومحترمًا أيضًا إذا مارس أى عمل يجيده ويتفوق فيه.

وتجاوزنا هذا الموضوع بلا منغصات، وسعد أخى بمعهده الجديد ودراسته العملية التى تناسب طبيعته، وتقدم فيه، وبلغت أنا السنة النهائية فى كليتى العملية وبدأت أستعد لأداء الامتحان، وفجأة تزلزلت حياة أسرتى الآمنة الوادعة بكارثة لم تخطر لأحد على بال، واختطف مترو الأنفاق حياة شقيقى الوحيد وهو فى السابعة عشرة من عمره فى حادث بشع لا أريد استعادة ذكراه، وأصيبت أمى المسكينة بحالة من الذهول والتوهان لازمتها لفترة بعد الحادث المؤلم حتى كانت تطلب منى بعد رحيل شقيقى ـ رحمه الله ـ ألا أغلق باب الشقة فى المساء بالمفتاح، لأن أخى سيرجع للبيت بعد قليل من عند أصدقائه، وحين طلبت منى ذلك لأول مرة طفرت الدموع من عينى ونظرت إليها حائرًا ومشفقًا لا أدرى بماذا أجيبها، فأنقذنى أبى المؤمن بقضاء ربه وأشار لى أن أفعل ما تطالبنى به أمى دون كلمة أو إشارة، فتعودت بعد ذلك كلما «نبهتنى» إلى عدم إغلاق الباب بالمفتاح أن أستجيب لطلبها وأنا أدعو الله فى قلبى أن يترفق بها.. وقد وقعت الكارثة قبل امتحانى بشهرين، فكدت أحجم عن دخوله، لكنى تمالكت نفسى، وأشفقت على أبى وأمى من مضاعفة آلامهما، وسلمت بإرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتأقلمت مع الظروف

المؤلمة.. بل وشعرت أيضًا بأننى مسئول عن محاولة إدخال البهجة إلى قلبى الأم والأب الحزينين، فضاعفت جهدى فى الاستذكار وحرصت على إرضاء أمى وتلبية كل رغباتها.. واستجبت لطلبها المؤلم الآخر أن أرتدى ملابس المرحوم أخى وبنطلونه وقميصه المفضلين، لكى ترانى فى صورته، وارتديت هذه الملابس رغم ضيقها الشديد علىَّ لكى أسعد قلبها الحزين بأية لمسة سعادة، وذهبت لأداء الامتحان مرتديًا ملابس أخى الضيقة لأنها طلبت منى ذلك صباح أول أيامه.. وإلى أن بدأت أمى - أعانها الله - تستسلم لقضاء الله وقدره، وتسلم بأن أخى - رحمه الله - لن يعود فى المساء، ولن يرجع فى صورتى مهما ارتديت من ملابسه، فكففت عن ذلك، وسلمت بالواقع المؤلم.

ثم ظهرت نتيجة البكالوريوس، فإذا بى قد نجحت بتقدير جيد جداً وبترتيب متقدم ساعدنى على الالتحاق بوظيفة حكومية على الفور، وكان نجاحى وعملى هو أول بارقة بهجة تدخل حياة أسرتى المظلمة بعد الرحيل، وكنت أنا قد تغيرت كثيرًا بعد حادث أخى، والتزمت دينيًّا وواظبت على أداء فروض دينى، وراعيت تعاليمه فى حياتى الخاصة دون تفريط ولا إفراط أو غلو، وقد بدأ هذا التغير فى شخصيتى منذ شاركت فى كل المراسم الحزينة لوداع أخى.. ومنذ نزلت معه إلى مثواه الأخير ورأيت ضيق هذا المثوى الذى سيحتوينا جميعًا ذات يوم.. كُلاًّ فى موعده المحتوم.

ورضيت أمى عن التزامى الدينى وراحت تحثنى على الزواج لكى تسعد برؤية وليد لى يعوضها عن أخى الراحل، وشاءت الظروف بعد ذلك بشهور أن أرتبط بزميلة لى فى العمل، وحدث توافق روحى عجيب بيننا، حتى شعرت بأن كلاً منا قد خلق للآخر وحده، واستشرت أبى وأمى بشأنها، فرحبا بذلك وسعدا بسعادتى، وحددت مع فتاتى موعدًا لزيارة أهلها.. وتوجهت إلى بيتها فى الموعد المحدد وأنا سعيد ومبتهج، فإذا بوالدها يقابلنى بجفاء شديد ولا يرحب بى، وانتهت المقابلة بأنه سيبلغنى برده بعد يومين. ولم يتأخر رده، وكان الرفض القاطع لضعف إمكانياتى.. فتألمت لذلك، وأردت أن يكون ردى على ذلك عمليًّـا، وكنت قد ادخرت من حصيلة عملى فى الإجازات الصيفية لعدة سنوات، ومن مرتبى من عملى الحكومى خلال عام، ومن مساعدات أبى مبلغًا لا بأس به، فاشتريت شقة جيدة بأحد أحياء القاهرة، ورجعت إلى والد فتاتى وأبلغته بما فعلت وعرضت عليه أن أقدم شبكة مناسبة بعد بضعة شهور لأنى قد استهلكت كل مدخراتى فى الشقة، فرفض ذلك أيضًا وبشدة، ومنع ابنته من العمل حتى لا تقابلنى وأجبرها على الاستقالة، واحترنا ماذا نفعل.. وتواصل الوسطاء بيننا.. ورفضت أية فكرة لأن أرتبط بها على غير إرادة أبيها، أو أن أعرِّضها لغضب أسرتها عليها.. ورجعت للأب مرة ثالثة مناشدًا إياه الرحمة بنا والاستجابة لرغبتنا، فرفض بإصرار واتهمنى بأننى أجريت لابنته غسيل مخ لإقناعها بى، وأنه لن

يوافق على زواجها منى مهما فعلت؛ لأننى غير جاهز وغير قادر على مطالب الزواج.

وبعد المرة الثالثة هذه وجدت أننى تحملت من إهانة الرفض الجارح ومن الجفاء الشديد فى المعاملة ما يكفينى، فاستسلمت لليأس.. وازددت يأسًا حين علمت أن عريسًا شابًّا جاهزًا قد تقدم لفتاتى وأنه عائد من الغربة ومستعد بكل الإمكانيات، وأنه قوبل بالترحيب من اللحظة الأولى.. وعقدت مقارنة ظالمة بينى وبينه فى بيت أسرة فتاتى، فوجدت الأسرة أنه لا وجه للمقارنة بين هذا الشاب الجاهز الكامل وبين ذلك الشاب «الحالم» الذى ما زال يبدأ أولى خطوات الرحلة الطويلة، وراحت الأسرة تضغط على فتاتى لقبول الشاب الآخر اللائق والذى لا يمكن رفضه، وبدأ نداء العقل يفعل فعله فيها.

وفى هذه الظروف جاءتنى فرصة للعمل بإحدى الدول العربية عن طريق قريب لى يعمل هناك.. فقررت السفر بغير أن ألزم فتاتى بالانتظار، لأن غربتى ستطول ٣ سنوات على الأقل قبل أن أستطيع الجلوس على مائدة المفاوضات مع أية أسرة «لشراء» فتاة بمثل هذه الشروط المادية، وسافرت رغم قسوة ذلك على أبى وأمى اللذين لم يعارضانى فى السفر بعد أن اعتصر الألم قلبيهما وهما يريانى أذوى صحيًّا وأفقد وزنى وأرجع كل مرة من بيت فتاتى مهانًا جريحًا كسير

النفس. وبدأت عملى فى الغربة، وراجعت نفسى فى وحدتى، فرأيت أنه من الظلم لفتاتى أن أفرق بينها وبين أهلها الذين يعترضون على شخصى وظروفى، فأرسلت إليها رسالة أطالبها فيها بالامتثال لما أرادته لنا إرادة الله، ودعوت لها بالسعادة فى حياتها، ورجوت الله أن يعوضنى عنها خيراً.

وحاولت أن أشغل نفسى بعملى، وبظروف حياتى فى الغربة، وتزايد التزامى الدينى فلم يمض زمنٌ قليل حتى عرضت علىَّ إحدى قريباتى المقيمات فى نفس البلد عروسًا قريبة لزوجها، وهى فتاة جميلة هادئة وذات وجه برىء وملتزمة دينيًّا، ووافقت على الفكرة، ورحبت الفتاة، والتقيت بها مرة واحدة، وبعدها تمت قراءة الفاتحة.. واتفقنا على ألا نتقابل بعد ذلك إلا فى خلال الإجازة السنوية. وأراك الآن تبحث عن المشكلة فى كل ذلك، فأقول لك: إننى بعد أن أتممت هذا الاتفاق ما زلت أتذكر فتاتى الأولى فى مصر فى كل لحظة من يومى وليلى.. وقد كثر شرودى وسرحانى حتى كدت أتعرض لحادث تصادم فى الشارع لولا لطف الله بى..

وسؤالى لك ياسيدى هو: هل ما أنا فيه هو مجرد ذكريات لحب حقيقى سوف ينتهى مع ارتباطى بالخطيبة الجديدة، أم أنه سوف يظل يطاردنى ويفسد حياتى، فأكون بذلك قد ظلمت نفسى وظلمت من ارتبطت بها؟.. وكيف يستطيع الإنسان أن يتخلص من ذكرى إنسان

آخر يشعر أنه يسرى فى دمه؟ . . إن والد فتاتى فى مصر لن يزوجها لى ولو أصبحت مليونيرًا، ومع ذلك فذكراها لا تفارقنى. . وخطيبتى صاحبة الوجه البرىء الجميل تتوافر فيها كل مواصفات الزوجة المثالية، وبها كل المميزات العائلية والدينية والجمالية والخلقية. . لكنى أخشى الفشل. . وأخشى أن أظلمها معى. . فبماذا تنصحنى ياسيدى؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه يا صديقى، ومع ذلك فالحياة تمضى بالجميع، سعداء وتعساء. . ونهر الحياة سريع الجريان، يجرف فى طريقه كثيرًا من الآلام والأحزان التى تجمَّدنا فى بعض الأحيان أمامها وتخيَّلنا فى غمرة معاناتنا لها أنها كالجنادل التى لا يزحزحها التيار، ومثلما صمدتَ لمحنة فراق الشقيق المؤلمة، سوف تصمد أيضًا لإخفاق الحب وانهيار أول الأحلام. . وما أكثر مواقف الحياة التى بكينا أمامها ثم لم تلبث أن تكشفت لنا بعد حين عن خير عميم ادخرته لنا الأقدار .

وأنت فى النهاية شاب قاربت السابعة والعشرين ولم تبلغها بعد. . وقصتك مع زميلتك السابقة فى العمل مما يقاس بالشهور وليس بالسنوات. . ومشاعرك تجاهها فى النهاية ليست أبدية. . ولن تتحدى قانون النسيان الذى لولاه ما طابت لأحد حياة. . بل لعلها لم تتعمق

إلى هذا الحد إلا بتأثير الرفض والمقاومة من جانب أسرة فتاتك لارتباطك بها، كشأننا فى بعض الأحيان حين لا يزيدنا الرفض إلا تمسكًا بالمفقود، ولعلنا لو نلناه بلا عناء لهان علينا بعض شأنه هوان اليسير والموجود على النفس البشرية التى تتعلق دائمًا بالصعب أو المفقود. وسواء كان هذا الأمر أو ذاك، فليس نهاية الحياة أن يصدم الإنسان فى أولى تجاربه مع العاطفة. . أو أن يتعذر عليه أن يمضى بها إلى النهاية المأمولة، وإذا كنتُ قد اهتممت بمشكلتك هذه على غير عادتى فى الاهتمام بهذه النوعية من المشاكل، فإنما قد فعلت ذلك تقديرًا للظروف المأساوية التى سبقتها فى حياتك وحياة أسرتك، وتقديرًا أيضًا للإحساس المؤلم الذى شعرت به وأنت تواجه الرفض والإنكار ثلاث مرات من والد فتاتك، وتستشعر العجز والمهانة وجرح الكرامة الإنسانية فيك، فليس أمرّ من أن يشعر الإنسان بالدونية والحرمان مما يراه حقه العادل فى السعادة، لسبب لا حيلة له فيه هو قلة إمكانياته المادية. . غير أن تجربة العمر سوف تعلمك الكثير والكثير يا صديقى. . ولسوف تعرف أن كثيرين ممن ترفقت بهم الحياة ونعموا بالسعادة فى حياتهم الخاصة قد حرموا هم أيضًا فى شبابهم ممن تصوروا أنهم لا حياة لهم بغيرهم، وأنهم يسرون فى عروقهم مسرى الدم منهم كما تشعر أنت الآن تجاه فتاتك، ثم لم تلبث الأيام أن داوت جراحهم، وجمعتهم بمن سعدوا بهم، واستشعروا السعادة

الحقيقية معهم. . وهيهات أن يستطيع أحد أن يجزم بأنهم كانوا سيسعدون بحياتهم نفس السعادة وسيحققون لأنفسهم ما حققوه من آمال، لو كانوا قد ارتبطوا بمن حالت ظروف الحياة دونهم ودون الارتباط بهم فى سنوات الشباب الأولى.

ونحن لا نعرف البشر فى النهاية بغير أن نعاشرهم ونختبرهم بمحن الأيام ويختبرونا، وإذا كان الأديب العظيم مصطفى صادق الرافعى يقول: أغضب المرأة تعرفها أى تعرف شخصيتها الحقيقية التى تختفى غالبًا على عين المحب، فنفس الكلمة تنطبق أيضًا على الرجل بنفس القدر، وتظل شراكة الحياة وتقلباتها واختباراتها هى محك التجربة الأوحد، وهى التى نستطيع أن نحكم بها على البشر بأنهم قد خلقوا لنا أو لم يخلقوا فلا تخش من ذكريات تجربتك السابقة على ارتباطك الجديد بصاحبة الوجه البرىء، فهى إنما تلح عليك الآن لأن حياتك خاوية وليس فى الساحة من يشغلك عنها بالرغم من ارتباطك الشكلى بالفتاة الجديدة، ولسوف يتغير الأمر كثيرًا حين يتخذ ارتباطكما شكله الرسمى فى إجازة الصيف. . ويتاح لكل منكما أن يكتشف الآخر ويتعرف عليه، فامنح صاحبة الوجه البرىء فرصتها العادلة فى أن تعرفها حق معرفتها وتعرفك. . ومهدا معًا أرضكما المشتركة لاستقبال بذور الحب وإنباتها، فإن أثمرت هذه البذور زهورها، فلقد عرفت بالتجربة أن نداء الموجود أبقى وأقوى

من نداء المفقود، وإن ضمرت البذور، أو لم تنبت إلا الحسك والشوك، فمن عرف من لا يصلحون له فلقد عرف بطريقة خفية الصالح المنشود، وحق له أن يبحث عنه كما يقول أديبنا العظيم نجيب محفوظ، والبرهان دليل العقل يا صديقى كما يقول أهل المنطق، فامنح تجربتك الجديدة فرصتها العادلة من الزمن والاهتمام والرغبة الصادقة فى إنجاحها.. ثم احكم عليها بعد ذلك بما تستحقه من حكم عادل بالاستمرار، أو التوقف.. مع تمنياتى لك بالسعادة وتحقيق الآمال.

(٥)
الإحســـاس

ليس للإنسان أن يحزن لخير أصاب الآخرين دونه، وإنما عليه أَن يبتَهج بما يبتهج له أعزاؤه وأصدقاؤه، فتكون نفسه الطيبة المحبة للخير والمطهّرة من كل سوء هى خير شفيع له عند موزع الحظوظ والأرزاق.

منذ كنت طالبًا بكلية الهندسة وأنا أقرأ لك، والآن قد جاء دورى لأن أكتب أول رسالة إليك بعد ١٣ عامًا. . ومشكلتى باختصار هى أننى من أسرة طيبة المظهر والسمعة بمحافظة ساحلية، لكننا فى واقع الأمر أسرة لا تملك شيئًا. وبسبب هذا التناقض بين المظهر والواقع، فكثيرًا ما نتعرض لمواقف محرجة، كأن يطلب أحد الجيران مساعدته فى حل مشكلة مالية اعتمادًا على سمعة العائلة ومظهرها. . فلا يجد لدينا شيئًا يغيثه، أو كأن نواجه بعض الالتزامات فى المناسبات الاجتماعية، فنقع فى مأزق صعب، أو كما حدث لى حين تقدمت

لإحدى زميلاتى فى العمل، فصدمت هى حين تحدثت مع أبيها وعرف منى أننى ـ رغم أنى أعمل منذ سنوات ـ غير قادر على توفير الشقة والأثاث والشبكة إلخ. . وكما كانت صدمة زميلتى فىّ شديدة، فلقد كانت صدمتى أنا أشد لأننى قد تعريت أمام غرباء كانوا يظنون بنا ظنًّـا أفضل.

وأصل المشكلة أننا سبعة إخوة، وقد اضطرت ظروفنا العائلية اثنين من إخوتى الشباب للزواج على أساس واحد، هو ألا تطلب العروس شيئًا على الإطلاق من أحدهما لأنه لا يوجد ما يقدمانه لها. وهكذا تم زواجهما رغم اعتراض أبى فى البداية. . ومع أن متاعبى ترجع كلها إلى كثرة الأبناء كثرة غير طبيعية، فإنى كلما نظرت إلى عينى أبى أرى فيهما حزنًا عميقًا، وينفطر قلبى حبًّـا له وإشفاقًا عليه، فلقد كافح هذا الرجل منذ نعومة أظافره وزوَّج نفسه بلا مساعدة من أبيه وإخوته، وكان يتمنى لو استطاع أن يجنبنا ما حدث له فى شبابه، لولا ما قضت به المقادير، وعندما أحدثه عن عددنا الكبير وأسأله: لماذا يا أبى لم تفكر فى مستقبلنا؟. . ينظر إِلَىَّ صامتًا بعينيه الجميلتين ويتسلل الحزن الصامت إليهما، فتسارع أمى الحبيبة بالإجابة نيابة عنه: أمر الله يا ابنى. . ولم نكن ندرى أن الدنيا ستتغير على هذا النحو بهذه السرعة. . كما أنك أكبر إخوتك وكنا وما زلنا نأمل فيك أن تساعد إخوتك. فلا أكاد أسمع منها هذه

الكلمات حتى يرق قلبى، وأسرع بإحضار القليل الذى ادخرته من مرتبى لأضعه بين يديها لتتصرف فيه كيف تشاء.. وهكذا مضت سنوات عمرى حتى بلغت الرابعة والثلاثين.

وليس هذا ما أود أن أستشيرك فيه، وإنما أمر آخر.. هو هذا الإحساس الغريب الذى راح يتمكن منى شيئًا فشيئًا خلال الفترة الماضية، وهو الإحساس بالحزن الغامض الذى ينتابنى كلما سمعت أن أحد أصدقائى قد خطب فتاة.. أو تَزوج أو رزق بمولود.. وقد كنت فى البداية أقاوم هذا الإحساس بشدة، وأحاول أن أتناساه وأذكِّر نفسى بالآية الكريمة **﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾** صدق الله العظيم.. لكن هذا الإحساس راح يطاردنى بإلحاح رغم ذلك، وأصبح يترك علىّ آثارًا ظاهرة للعيان، فأجد نفسى حين يزف إِلَىَّ صديق نبأ خطبته لفتاة لا أفرح ولا أهجم عليه لأقبله كما يفعل الآخرون، وإنما أجد ملامح وجهى تتغير رغمًا عنى، ويهاجمنى هذا الإحساس، وأنا أجاهد لكيلا يترك آثاره على ملامحى أو حديثى.

وقد تكرر هذا الموقف مرارًا حتى أصبحت أتجنب مقابلة الزميل الذى سمعت أنه تزوج حديثًا حتى لا يتجدد عذابى مع الإحساس الغامض ومحاولتى إخفاءه.

ولست أدرى ماذا أستطيع أن أفعل لكى أرجع كما كنت، لأن مجرد إحساسى بأننى فى طريقى لأن أكون إنسانًا حقودًا أو حسودًا يقتلنى، وعندما أختلى بنفسى فإنى أصلى كثيرًا وأبكى طويلاً، وأشعر أحيانًا بالضيق من أسرتى الضعيفة.. وفى أحيان أخرى أحس بأن موتى هو أفضل الحلول الممكنة لظروفى.

إننى أدعو الله كثيرًا خوفًا من أن أصبح حقودًا أو معترضًا على نعمة الله التى يرزق بها من يشاء.

فماذا أفعل لكى أتخلص من هذا الإحساس.. مع رجائى بألا تنصحنى باستشارة أخصائى نفسى، لأن حالتى لا يعلم بها أحد سوى الله وسواك الآن؟.. وشكرًا لك مقدمًا.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

هذا الإحساس الذى تعانيه وتتكتمه قد لا يخلو منه ـ ولو بدرجات متفاوتة ـ أى إنسان تحول ظروف اضطرارية ـ مادية أو غير مادية ـ دون تحقيقه لأحلامه فى السعادة الشخصية.

فالإنسان يا صديقى قد فُطر على الاستعداد للرثاء لنفسه، على الإحساس بجدارته بأن ينال مثلما أتيح للآخرين من أسباب السعادة، وهو إحساس آخر مختلف تمامًا عن إحساس الحقد على هؤلاء الآخرين الذين فازوا دونه بما حرم هو منه، لأن الحقد إنما يعنى تمنى

زوال نعمة الآخرين وسعادتهم، سواء نال مثلها من يحمل هذا الإحساس البغيض أو لم ينلها.

أما هذا الإحساس بالحزن الشفيف فى موضع البهجة، فتفسيره هو أن شعور الإنسان بحرمانه مما يتمناه قد يتجدد حين يتلقى مثيرات خارجية ترتبط بأمانيه الشخصية، فتنبهه.. وتذكره بأحلامه الموءودة.

فإذا كانت هذه الأحلام تدور حول الزواج فى حالتك، فمن الطبيعى أن تكون مناسبات الخطبة والزفاف والإنجاب هى هذه المثيرات.. فإذا كنت تحزن حين تسمع نبأ خطبة صديق لك، فأنت فى الحقيقة لا تحزن لأن صديقًا لك قد خطب فتاة أو ارتبط بها، وإنما تحزن لنفسك لأنك غير قادر للأسف حاليًا على أن تحقق ما سمحت له ظروفه الاجتماعية بتحقيقه.. وهو إحساس بالرثاء للنفس يداخله شىء من الإحساس بالغيرة الشخصية المحكومة بالضوابط الأخلاقية والدينية، ولا يتجاوز هذا الإحساس المختلط حدوده إلى الحقد البغيض أبدًا إلا لدى ذوى النفوس المظلمة التى تحاسب الآخرين عن أقدارها هى.. بل وأحيانًا عن سوء سلوكها الذى أعان أقدارها عليها، فإذا كان هذا الإحساس الذى تتحدث عنه شائعًا بين معظم الفتيات متقاربات السن فى مثل هذه الظروف، فهن لا يعانين كثيرًا من آثاره النفسية السلبية عليهن لأنهن لا يخفينه ولا يتكتمنه، بل ينفسن عنه بالحديث مع غيرهن، فتخف آثاره الضارة عـليهن،

ولا يتجاوز حديثهن هذا التعبير الوقتى عن الأمانى المماثلة، أو حتى استنكار أن تسبقهن أخريات إلى ما تأخر عنهن. .

أما الجديد حقًّا فهو أن يكتب لى عنه شاب بعد كثرة ما قرأت عنه فى رسائل الفتيات، وهذا فى تقديرى علامة صحة نفسية وليس العكس، ذلك أنه ليس من الصحة النفسية إنكار المشاعر والأحاسيس المخجلة التى ترفضها عقولنا ونكره أن يطلع عليها الآخرون، لأن ما يستنكره العقل الواعى ويرفضه من المشاعر والأفكار المخجلة، لا يتبدد فى الهواء ـ للأسف ـ أو يفارقنا إلى غير رجعة، وإنما يؤدى رفض العقل الواعى وإنكاره لها إلى الضغط عليها بشدة حتى تنزل إلى دائرة العقل الباطن، فتكمن فيه وتتحين الفرص للخروج من محبسها فى شكل تصرفات أو ردود أفعال غير مألوفة أو غير متوقعة أو غير مفهومة لنا.

لهذا فالأصلح دائمًا من الناحية النفسية هو أن نعترف بهذه الأفكار والمشاعر فيما بيننا وبين أنفسنا، وأن نعرضها مرة أخرى على عقولنا لنتفهمها ونحللها، وننزع عنها أشواكها ومحاذيرها بالتحليل المنطقى الذاتى والحوار العقلانى الهادئ مع النفس، فيتبدًّى لنا فسادها وعدم جدواها. ولنبدأ مثلاً بمناقشة العلاقة السببية بين هذا الإحساس الذى يهاجمك، وبين مثيراته الخارجية وهى نبأ خطبة صديق أو زميل لك. إنك شاب طيب من أسرة طيبة حسنة السمعة. . لكن كثرة الأبناء

ترهق عائلها وتغل يده عن تقديم المساعدة اللازمة لأبنائه فى الزواج.. وقد ساهمت أنت بجزء مشكور من دخلك فى تيسير حياة إخوتك والتخفيف عنهم.. فما هى العلاقة بين كل هذه الظروف غير المواتية وبين نبأ خطبة صديق؟

إن الرد المنطقى الوحيد هو أنه لا علاقة سببية على الإطلاق بين الأمرين، فهذا الزميل ليس مسئولاً عن ظروفك العائلية ولا عن برِّك بأبويك وإخوتك، وهو لم ينافسك على قلب فتاة وينتزعها منك.. فلماذا الحزن إذن لسماع نبأ خطبته؟!.. إن رد الفعل الطبيعى لمثل هذا النبأ هو التهنئة والابتهاج والأمل فى الله أن تنال نصيبًا مماثلاً لنصيبه من السعادة. ومؤكد أنك كنت تفعل ذلك فى البداية رغم ما يصاحبه من شعور عادى بالرثاء للنفس، لكن تكتمك للإحساس الطبيعى بالحزن الشفيف الذى ينبهه مثل هذا الخبر، وإنكار عقلك الواعى له وخجلك منه، قد أدى إلى تفاعله مع أشياء أخرى فى عقلك الباطن، فبدأت تأثيراته فى الظهور واضحة على ملامح وجهك، وفيما ينتابك من نوبات الضيق بأسرتك والسخط على ظروفها، حتى بلغ بك الأمر تخيُّل الموت كأفضل الحلول لمشكلتك. ولست فى حاجة إلى كل ذلك، وإنما أنت فى حاجة فقط إلى الاستبصار الذاتى الذى تقوم من خلاله بتحليل هذا الإحساس وفهم دوافعه واكتشاف لامنطقيته.. ومن وسائل مقاومة هذا الإحساس ألا تتفادى أبدًا مثيراته الخارجية، بل أن تضع نفسك فى قلبها متحديًا

هذا الإحساس الكريه، ومنكرًا عليه أن يفسد عليك مشاعرك تجاه زملائك وأصدقائك، وهو ما يسميه علماء النفس بأسلوب «الغمر الانفعالى أو الشعورى». . بمعنى أن تغمر نفسك فى الموقف الذى تتهيبه، وتستنفر إرادتك لمواجهته، فتكتشف بعد لحظات أنك قد تغلبت على مخاوفك تجاهه، وتصرفت التصرف الوحيد اللائق بك فى مثل هذه الظروف.

أما الانسحاب والهروب فلا عائد لهما إلا تعميق هذا الإحساس السلبى ومضاعفة آثاره عليك، ومع أسلوب الغمر هذا. . تجىء ضرورة التمسك بالأمل، والاقتناع دائمًا بأن الأوضاع لن تستمر للأبد كما هى؛ لأن الحياة فى تغير دائم، ولأن الصغير يبدأ صغيرًا ثم يكبر ويحقق لنفسه كل ما تمناه لها. . وبالتالى فلابد أن تجد بغيتك من السعادة. . إن لم يكن اليوم فغدًا. . فلكل إنسان دوره الذى يجىء عندما يحين الأوان. . ولكل إنسان من حياته ما يرضيه. . ومن نواقصه ما يتطلع إلى استكماله. فاستمر فى برِّك بأبويك يا صديقى ولا تنس نصيبك من الدنيا. . وما أكثر الفتيات والأسر الكريمة التى ترحب بشاب طيب مثلك، مهما كانت ظروفه المادية. . فإذا كان الأمر كذلك فليس للإنسان أن يحزن لخير أصاب الآخرين دونه، وإنما عليه أن يبتهج لما يبتهج له أعزاؤه وأصدقاؤه. . فتكون نفسه الطيبة المحبة للخير والمطهرة من كل سوء هى خير شفيع له عند موزع الحظوظ والأرزاق. .وخير بشير له باقتراب دوره فى نيل السعادة وجوائز الحياة فى أقرب فرصة.

(٦)
سرعة القطار

من يهرول للحاق بالقطار وهو يتَحرك ببطء استعدادًا للانطلاق، تطالبه الحكمة بأن يتعلق بأول عربة يتاح له القفز إليها.. وألا يتَردد طويلاً فى المفاضلة بين العربات المختلفة!

أنا إحدى قارئات بابك الأسبوعى بانتظام، وأحتفظ بصفحاته لأعيد قراءتها أحيانًا فتهوِّن عَلَىَّ بعض متاعبى. وأنا آنسة فى الحادية والثلاثين، خطبت وأنا فى العشرين من عمرى لشقيق زوج أختى.. وهو شاب ممتاز فى كل شىء من ناحية المظهر والأخلاق والأسرة والتعليم الجامعى والوظيفة المناسبة، مع أن مؤهلى لا يزيد على دبلوم التجارة، وكان خطيبى بدينًا بعض الشىء، ونتيجة لعدم خبرتى بشئون الحياة فى هذه السن الصغيرة، فقد اقترحت عليه أن يستشير طبيبًا ويرتب معه ريجيمًا لتخسيس نفسه، وبسبب حبه الشديد لى فقد

وافق على اقتراحى وذهب بالفعل إلى الطبيب الذى وصف له أقراصًا للتخسيس راح يتناولها بالتزام وحماس لكى يفقد جزءًا من وزنه ويرضينى، فإذا بخطيبى يصاب بعد فترة قصيرة بالفشل الكلوى وتَتَدهور صحته، وينتهى به الأمر إلى أن يعيش بالغسيل الكلوى مرتين كل أسبوع، وكانت هذه أول مرة أسمع فيها بمرض الفشل الكلوى وأعى خطورته، وبسبب إحساسى بالذنب تجاه خطيبى وشعورى بأننى قد دفعته إلى عمل الريجيم وتناول هذه الأقراص، فقد تمسكت بالوقوف إلى جانبه فى محنته، ورفضت التخلى عنه، وانتظرته عشر سنوات كاملة وأنا أرتدى دبلته فى إصبعى، واعتبرت نفسى السبب الأساسى لمرضه، فقد كان خطيبى فى أتم صحة وأحسن حال حين خطبنى، فدفعته لتخسيس نفسه بحماقتى ولم أكن ـ والله العظيم ـ أقصد أى أذى له، ولا كنت أعرف خطورة هذه الأقراص اللعينة ولا ما يمكن أن تتسبب فيه له من أذى، بل إنى ألوم حتى الطبيب الذى وصفها له، وأتساءل: كيف تسمح الدولة بتداول أدوية خطرها أكثر من نفعها رغم التحذيرات المكتوبة عليها.

المهم أننى تمسكت بوقفتى إلى جانبه، فمضت السنوات من عمره ومن عمرى بلا أى تغيير ولا أمل سوى تعذيب ضميرى المستمر لى ـ سامحنى الله ـ إلى أن ازداد ضغط أسرتى علىّ لفسخ الخطبة، فاستسلمت فى النهاية لرغبتهم ولم أتركه إلا بعد غيابه عنى لمدة

ثمانية شهور، ولم يتأثر خطيبى عند إرسالى شبكته إليه، بل بدا وكأن شيئًا لم يكن، فأحزننى برود رد فعله، ومرضت بعد خلع دبلته من إصبعى وفقدت ثقتى فى نفسى، وأحسست بضياع العمر، وبأنى لم أعد مرغوبة من أحد، وإن كنت أطمئن عليه حتى الآن وأعرف أخباره من أختى المتزوجة من شقيقه. والحمد لله فقد اجتزت محنة الضيق وفقد الثقة فى النفس بعد فترة، لكن أهلى مهمومون بأمرى ويبحثون لى دائمًا عن عريس، وقد تقدم لى حوالى خمسة رجال، لكنى لم أوفق فى اختيار أحدهم؛ فالواحد منهم إما أن يكون مطلقا ووراؤه مشاكل لم تنته بعد فى المحاكم، وإما أن يكون فى حاجة لفترة خطبة طويلة بسبب ضعف إمكانياته.. وأنا أخاف الانتظار إذ لم يعد يتسع العمر له.. وإما أن يكون مرفوضا من جانبى من الناحية النفسية ولا أستطيع مغالبة نفسى على قبوله.

ولست راغبة فى الزواج لمجرد الزواج، وإنما أريد زواج الروح قبل زواج الجسد حماية للطرفين من الفشل، فهل أصبح الاستقرار صعبًا بالنسبة لى إلى هذا الحد يا سيدى؟ أم أنه هو عقاب الله لى بسبب ما جنيته على خطيبى السابق بجهلى وعدم خبرتى بالدنيا؟..

إننى أسلم أمرى لله.. لكن فرص الزواج تتراجع والعمر يتسرب من بين يدى، وليس لَدَىَّ رصيد كبير من الجمال يصمد للزمن، وأسألك: هل أقبل أى إنسان لألحق بالقطار، أم أتمسك برأيى

ولا أقبل إلا من أستريح إليه وآمل فى نجاح زواجى منه واستمراره؟ . . وهل ترانى مسئولة فعلاً عما أصاب خطيبى السابق؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

الله وحده هو الأعلم يا آنستى بحقيقة رد فعل خطيبك السابق عند إعادة شبكته إليه بعد عشر سنوات من الخطبة والأمل فى الشفاء والسعادة، فإذا كان قد أبدى بعض الجمود فى المشاعر عند تسلمه لها . . فماذا يستطيع أن يفعل من يتلقى شهادة باليأس منه سوى أن يتظاهر بعدم الاكتراث لكيلا يضيف إلى معاناته مع أقداره الأليمة معاناة أخرى جديدة لا طائل تحتها ؟

وإذا كان قد تظاهر بأنه لم يتأثر بفسخ خطبته بعد هذه السنوات الطويلة، فلأنه لم يود غالبًا إيلامك ومضاعفة إحساسك تجاهه بالذنب، ولأنه حين تشتد بالإنسان المعاناة تستوى لديه للأسف كل الأمور، فلا يحزن لفقد ما ينبغى عليه أن يحزن له، ولا يبتهج لما يثير الابتهاج فى نفوس الهانئين الذين لم تختبرهم الحياة اختبارها القاسى له .

أما إحساسك بالذنب تجاهه فلا مبرر لمكابدته أو استمراره . . فلا أنت الطبيب الذى وصف له هذا الدواء . . ولا أنت الشركة التى أنتجته لاستخدامات معينة رغم خطورته، فأساء البعض استعماله فى غير غرضه الأصلى . . ولا أنت الجهة المختصة التى صرحت بتداوله

ولم تحذر منه الآخرين التحذير الكافى.. ولا أنت فى النهاية قد اطلعت على ما سطر لخطيبك فى اللوح المحفوظ ثم أغريته به رغم علمك بما ينتظره بسببه، وإن كانت هذه النقطة بالذات تحتاج إلى توثيق علمى يؤكد حقيقة الصلة بين هذا العقار وأمثاله، وبين الإصابة بالفشل الكلوى.

لا كنت هذه ولا تلك، ولا أحد يستطيع أن يجزم بأنه لم يكن ليصاب بما أصيب به حتى ولو لم تشيرى عليه مشورتك الساذجة بطلب الرشاقة عن طريق العقاقير، ولهذا فإنه يحق لك أن تقولى ما قاله أحد الصوفية فى موقف مماثل: الخير أردت ولا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى ثم تعفين نفسك بعدها من كل لوم.. أو إحساس قاتل بالذنب.

أما تراجع فرص الزواج بالنسبة لك وتصورك فى بعض الأحيان أن ذلك من عقاب الله لك، فإن الله جل شأنه أعدل من أن يعاقب أحدًا على ما لم يقصده ويبتغيه، وإنما يحاسب الله العباد على ما اقترفوه عمدًا واختيارًا، وليس طلبا للخير أو توهمًا للمصلحة، فإنما الأعمال بالنيات يا آنستى لا بالنتائج ولا بالكوارث غير المتوقعة.

وأنت فى النهاية لم تتخلى عن خطيبك فور إصابته بالمرض المزمن، شفاه الله وشفا أمثاله منه وعافاهم.. وإنما تمسكت بحبه ووقفت إلى جواره، ولم تخذليه فى وفائك أو شهامتك بعد أسابيع

أو شهور من مرضه، كما قد يفعل آخرون، وإنما تمسكت بالرغبة والأمل فيه عشر سنوات كاملة حتى استشعر هو الذنب تجاهك بإحساس الإنسان العادل مع الآخرين، وما كان انقطاعه عنك خلال الشهور الثمانية التى سبقت فسخ خطبتك له إلا تضحية مقصودة منه لإشعارك بأنه قد كفاك ما قدمت له حتى الآن من وفاء وانتظار، ولا بأس بك إن أنت استجبت لضغوط أسرتك عليك لفسخ خطبته، ولم يكن بكل تأكيد غائبًا عن إدراك مثل هذه الضغوط وهو شقيق زوج أختك، فأراد فى تصورى أن يعطيك (المبرر) النفسى لإعلان اليأس منه وإنهاء الأمل فيه بغير أن تحاسبى نفسك على التخلى عنه فى محنته.

فأى تكفير أكبر من عشر سنوات من الانتظار، حتى لو كنت قد جنيت عليه عامدة متعمدة فيما أصابه من تصاريف القدر؟

إن عذاب الضمير والإحساس بالذنب هما العقاب الذاتى للمرء على ما يجنيه من أخطاء متعمدة فى حق الآخرين.. وأنت قط لم تفعلى شيئًا عن سوء القصد.. فاغلقى هذه الصفحة نهائيًّا من حياتك وتطلعى إلى الغد بقلب متفائل ومؤمن بأحقيتك فى السعادة. ولست أطالبك فى النهاية بقبول من ترفضينه نفسيًّا طلبًا للاستقرار، لكنى أطالبك فقط بإدراك حقائق الحياة والعمر، وبإبداء شىء من المرونة فى تصوراتك وشروطك للزواج والسعادة فى الحياة..

فمن يهرول للحاق بالقطار وهو يتحرك ببطء استعدادا لمغادرة الرصيف، تطالبه الحكمة بأن يتعلق بأول عربة يتاح له القفز إليها بأمان، وليس من الحكمة أن يتردد طويلا فى المفاضلة بين العربات المختلفة أو أن يتمسك بألا (يتعلق) إلا بعربة الدرجة الأولى وحدها، فما أن يحاول الاقتراب منها حتى يكون القطار قد ضاعف من سرعته وفاتته فرصة الركوب نهائيا. ولا يعنى ذلك أبدًا أن نقبل ما لا يصلح لنا أو ما يرشحنا للعناء والتعاسة، وإنما يعنى فقط ألا نتعفف عن تقديم بعض التنازلات عن شروطنا ومواصفاتنا الخاصة للسعادة.. لكى نفوز بفرص الأمان والاستقرار.. بدلاً من أن نفقدها كلها لأننا تمسكنا من البداية بألا نقبل إلا بأفضلها وأجملها!



(٧)
الدوائر المتشابكة

«المغالاة الشديدة حتى فى الفضائل الدينية والأخلاقية إلى حدّ الجور على حقوق الآخرين، شططٌ يخرج بهذه الفضائل من الدائرة الحميدة إلى دائرة الانحراف النفسى وظلم الآخرين»

أكتب إليك بعد أن ضاقت بى الدنيا من كثرة المشاكل التى تحيط بى، فأنا سيدة فى أواخر الأربعينيات من العمر توفى زوجى بعد ٥سنوات فقط من الزواج، وترك لى ولدًا وبنتًا وأنا ما زلت فى شرخ شبابى، فاحتضنت أولادى ورفضت كل من تقدموا للزواج منى، وآثرت أن أتفرغ لأبنائى وأن أقدمهم للحياة بلا عقد نفسية بسبب زواج الأم أو معاملة زوجها لهم.. إلخ. والحمد لله.. فلقد أديت الرسالة ومضت بى سنوات العمر بخيرها وشرها فى سلام، وتخرج ابنى فى كلية مرموقة، وتزوج

من إنسانة فاضلة من أسرة كريمة، وسافر مع زوجته للعمل فى الخارج رعاهما الله، وتخرجت ابنتى وتزوجت من إنسان هادئ الطبع أملتُ أن تسعد بحياتها معه، وأستريح من معاناة القلق عليها وعلى ابنى، فبدأ زواجها سعيدا بالفعل وواعدًا بالراحة وهدوء البال، لكن ذلك لم يدم للأسف لأكثر من أسابيع، ثم بدأ زوج ابنتى يرجع من عمله كل يوم، فيتناول طعام الغداء مع زوجته، ثم يتركها فى شقتها الواسعة وحيدة ويذهب إلى بيت أبيه الذى يعيش مع أمه فى شقة صغيرة.. وتعيش أخته فى شقة أخرى بنفس البيت، ويمضى اليوم كله عندهم من الظهيرة ولا يرجع إلى زوجته إلا بعد منتصف الليل.

وبالطبع فقد بدأت ابنتى تعترض عليه وتطالبه باصطحابها معه فى زياراته اليومية لأسرته أو البقاء معها، فكان يستجيب لها مرة ويصحبها معه، ويرفض ذلك عشرات المرات، وإذا صاحبته فى الزيارة لم يقض سوى وقت قصير مع أبويه ثم يصعد إلى مسكن أخته ليمضى الوقت كله معها ومع أبنائها. وكالعادة أحست ابنتى بالغيرة من اهتمام زوجها الزائد بأخته وأولادها على حساب اهتمامه بها، فحدثت بعض المشاكل، وشكت ابنتى من بعض كلمات أخته التى جرحت مشاعرها، فكان زوجها يدافع عن شقيقته دائمًا، وانتهى الأمر بأن قللت من زيارتها لها تجنبًا للمتاعب. أما زوج ابنتى

فقد واظب على نظامه اليومى بلا انقطاع: يرجع فى الظهيرة ويتناول الغداء مع زوجته، ثم يتركها وحيدة ويذهب إلى بيت أخته وأولادها مهما كانت الظروف والأحوال، ويمضى المساء كله معهم حتى منتصف الليل. وقد تسألنى: وماذا يفعل فى بيتها كل هذا الوقت يوميـًّـا، وأجيبك بأنه فى أيام الدراسة يذاكر لأبنائها دروسهم ويتابع معهم دراستهم، وفى أيام العطلة يلاعبهم الكرة والشطرنج وخلافه، وإذا قامت أخته بتنظيف البيت قام هو بغسل الموكيت ومسح الأرضية السيراميك نيابة عنها، ويساعدها فى كل شىء ويشترى طلباتها من الخارج، ثم يرجع إلى زوجته التى تجلس وحيدة فى مسكنها معظم ساعات اليوم ويطلب منها إذا عاتبته أن تتعود على هذا الوضع، لأن هذه هى حياته وليس مستعداً لتغييرها، وإذا اعترضت عليه أو ذكّرته بحقوقها كزوجة وأم وامرأة، قال لها: إنه يحب أمه ومرتبط بأخته ارتباط الدم الذى لا ينفصم، أما هى فلا يربطها به سوى ورقة الزواج الذى يمكن أن ينفصم فى أية لحظة!

ويتشاجران ويختلفان.. فأقوم بالصلح بينهما، وأذكِّر ابنتى بحقوق صلة الرحم وبرّ الأبوين لتخفف من لومها لزوجها، وأطالبها بالصبر إلى أن يكبر وليدها منه فيشغله بعض الشىء عن أبناء أخته ويرتبط به كما يرتبط بهم، وتمر الأزمة مؤقتا، إلى أن تتجدد مرة أخرى وأرجع للتدخل بينهما.

أما زوج الأخت فقد كان هو الآخر غير راضٍ عن وجود شقيق زوجته بصفة دائمة ولمدة ثمانى ساعات يوميًّا على الأقل فى مسكنه وبين أولاده، وكان يشكو دائمًا من أنه يعيش غريبًا فى بيته وبين أولاده، ومن أن أبناءه مرتبطون بخالهم نفسيًّا وعاطفيًّا أكثر من ارتباطهم به، ومن أن شقيق زوجته هو الذى يربى أولاده أكثر مما يفعل هو معهم، لأنه شبه مقيم بينهم فى حين لايرجع هو من عمله قبل الثامنة مساء. وقد اختلف مع زوجته مرارًا حول ذلك، فكانت تجيبه بمثل ما يجيب به شقيقها ابنتى، وتقول له: إنها ترتبط بشقيقها برباط الدم، أما هو فلا تربطه بها سوى ورقة أما الأبوان فيتفرجان على ما يجرى أمامهما ولا يتدخلان فى شىء !

واستمرت الحياة على هذا النحو ما بين يوم هادئ ويوم صاخب بالخلافات، إلى أن تشاجرت ابنتى وزوجها ذات يوم وانهارت صحيًّا وعصبيًّا ونقلت إلى المستشفى فى حالة سيئة، وحين أفاقت من إغماءتها قالت: يكفينى هذا، ثم طلبت من زوجها الطلاق.

وحاولتُ قدر جهدى أن أهدئ من غضبها وأن أجعلها تعدل عن طلب الطلاق رفقًا بطفلها الوحيد، ولكن بدون جدوى.. فلقد أصرت على الانفصال، وطلبت من زوجها ألا يزورها فى المستشفى، وغادرته بعد أيام إلى بيتى وهى ذابلة وحزينة ومكتئبة، ولم تنجح الجهود فى الصلح بينها وبين زوجها، وتم الطلاق بالفعل!

وعاشت معى ابنتى وطفلها كما كانت قبل الزواج، وظللت رغم الانفصال أحلم بأن يصلح زوجها من نفسه ومن أخطائه، وأن يسترجع زوجته بعد أن تكون قد هدأت أعصابها وواجهت الحياة كمطلقة وحيدة لفترة، وأشفقت على ابنها من أن يتمزق بينها وبين أبيه، وظل هذا الأمل يراودنى فى سريرتى ولا أصارحها بـه حـتـى لا تزداد عنادًا، فإذا بشىء لم يـكـن فـى الحسبان يـحـدث فـجـأة ولا أستطيع أن أوقفه أو أمنعه، فلقد فوجئت بعد شهور بزوج الشقيقة - الذى كان يضيق بتدخل شقيقها فى حياته - يزورنى فى البيت ويبلغنى بأنه قد طلق زوجته بعد أن شعر بأنه لا وجود له فى حياتها، وأنه قد عجز عن التفاهم معها، وترك لها الشقة والأولاد وكل شىء، ورجع للإقامة فى شقة صغيرة له. وتعجبت لذلك، وهممت بأن أناشده العودة لزوجته من أجل أطفاله، فإذا به يفاجئنى بطلب يد ابنتى! وذهلت للطلب، ولم أستطع أن أقول له شيئًا سوى أنى سأبلغ ابنتى برغبته وأترك لها القرار، وانصرف شاكرًا، ورجعت ابنتى فصارحتها بما حدث متعجبة له، فإذا بها تفاجئنى هى الأخرى بقبول عرض زوج شقيقة زوجها دون تفكير ولا مهلة لمراجعة النفس ولا أى شىء!

ووقفت مذهولة وعاجزة عن فهم ما يجرى أمامى.. أو الاعتراض عليه، وتم الزواج بالفعل بعد أسابيع، وانتقلت ابنتى

للإقامة مع زوجها الجديد تاركة لى طفلها الوحيد لأرعاه وأتولى تربيته عنها.

وانقطع بذلك خيط الأمل الذى تعلقت به، وهو أن ترجع المياه لمجاريها ذات يوم بين ابنتى وزوجها السابق؛ لينشأ ابنهما بينهما، وتبدد الأمل نهائيا حين علمت منذ أيام أن زوج ابنتى السابق الأحمق قد تزوج هو الآخر بعد أن نقل نفسه إلى مدينة ساحلية.. وأفاق بعد فوات الأوان من غيبوبة أخته التى دمرت حياته الزوجية الأولى.. وتعجبت.. ألم يكن من الأولى به أن يستعيد أم ابنه ويبتعد بها عن المشاكل فى هذه المدينة الساحلية.. أو حتى فى نفس مدينته!

أما أنا فقد تقدم لى يا سيدى رجل فاضل توفيت زوجته بعد زواج آخر أبنائه ويعيش وحيدًا، وأرى أنه من حقى أن أعيش ما تبقى لى من عمرى فى سلام وفى كنف رجل فاضل.. لكن تواجهنى مشكلة عسيرة هى: ماذا أفعل مع الولد الذى تركته لى ابنتى ولحقت بزوجها الجديد؟.. هل أرسله لأبيه ليعيش معه؟ وإذا فعلت ذلك كيف أضمن أن تعامله زوجته معاملة رحيمة؟.. أم هل أرسله لابنتى.. وزوجها هو عدو أبيه الأول الآن بعد زواجه من زوجته السابقة وطلاقه لشقيقته؟

ماذا أفعل يا سيدى؟.. لقد ترملتُ شابة وعشت زهرة عمرى

وحيدة وربيت أبنائى وسهرت وعلَّمت ورعيت. . وحرام أن أعيد هذا المشوار الطويل من أوله مع حفيدى هذا، ومن حقى أن أتنفس بعض نسائم الراحة فى أخريات العمر. . والزواج استقرار ومودة ورحمة كما تعلم. . فبماذا تشير عَلَىَّ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لا حدَّ لغرائب الحياة ولا نهاية لعجائبها!

إن من الأناشيد البوذية نشيدًا غريبًا تقول كلماته: افرحوا للأنباء السارة، فالحكيم بوذا قد عرف أصل الشر كله. . وهدانا للخلاص!

ومع أنى لم أفرح لأية أنباء سارة فى رسالتك، فإنى أتصور أنى ربما أكون قد عرفت (أصل الشر كله) فى هذه القصة المتشابكة الدوائر، وهو الشطط والتطرف والخروج على جادة الاعتدال فى كل شيء ولو كان من الفضائل! فبر الأبوين والحرص على صلة الرحم وحدب الشقيق على شقيقته والشقيقة على شقيقها، كلها من الفضائل الدينية والأخلاقية الحميدة، لكن المغالاة الشديدة فيها إلى حد الجور على حقوق الآخرين والتقصير فى واجباتهم شطط يخرج بهذه الفضيلة من الدائرة الحميدة إلى دائرة الانحراف النفسى والعجز عن أداء المسئوليات الطبيعية للزوج تجاه زوجته وأبنائه وللزوجة تجاه زوجها، لهذا فلقد قيل إن الاعتدال والوسطية مطلوبان دائمًا وفى

كل الأحوال، ووسط الشيء لغويا هو خيره وأعدله، والوسطية من الفضائل الفكرية لأى إنسان عادل فى رؤيته للحياة وتعاملاته معها، وأى انحراف عن هذه الوسطية بالتقصير أو بالمغالاة يتعارض مع العدل والاعتدال والفضائل الدينية والأخلاقية.

وزوج ابنتك الأول وشقيقته يا سيدتى قد غالى كل منهما فى اهتمامه بالآخر واستحواذه عليه نفسيًّا وعمليًّا إلى حد الإضرار بحقوق شريك الحياة عليه، فشكت ابنتك من وحدتها ومن استغراق زوجها فى حياة شقيقته وأولادها على حساب الاهتمام بها وبابنها، وشكا زوج الشقيقة من غربته فى بيته، وإحساسه بأن أبناءه أكثر ارتبَاطًا منه بخالهم، وأن زوجته أكثر اهتمامًا وإحساسًا بشقيقها منه.

والخطأ الذى ارتكبه الشقيقان فى حق شريكى حياتهما ليس فى ارتباطهما الأخوى وتقاربهما الزائد فى حد ذاته حتى ولو تخطى الحدود المألوفة، وإنما فى افتقاد كل منهما للحكمة وللفهم الصحيح لمشاعر شريك حياته وغيرته الإنسانية الطبيعية من اهتمام شريك حياته بغيره بأكثر مما يهتم بأمره، مهما كان هذا (الغير) ومهما كانت صلته الإنسانية به. فالزوجة تحتاج لأن تشعر دائمًا بأنها محور اهتمام زوجها الأول فى الحياة بغير أن يتعارض ذلك مع برِّه بأبويه وحرصه على علاقته بأسرته وأشقائه، والزوج أيضا يسعده دائمًا أن تشعره زوجته بأنه اهتمامها الأساسى فى الحياة بغير أن يتعارض ذلك مع مشاعرها

العائلية الحميمة تجاه أسرتها وأشقائها، ولا مع واجباتها تجاههم..

وزوج ابنتك وشقيقته لم يكتفيا فقط بالعجز عن فهم هذه المشاعر وتقديرها التقدير الصحيح وتدارك الأخطاء وفقًا لذلك، وإنما تجاوزا ذلك أيضا إلى استفزاز الطرف الآخر، فوضع كل منهما علاقته بالآخر فى مواجهة علاقته الأخوية، وأشعره بأنه لا تربطه به سوى ورقة ما أسهل تمزيقها!

وما كان ينبغى لأحدهما أن يجعل منها علاقة مواجهة وتصادم، وهى فى الحقيقة علاقة موازية يمكن أن تسير بسلام بمحاذاة العلاقة الأخوية والعائلية بغير صدام معها، فكانت النتيجة وبالاً على الطرفين وعلى أبنائهما جميعًا للأسف.

وفى ظلال هذه الشكوى المشتركة من جانب ابنتك ومن جانب زوج الشقيقة وإحساس كل منهما بإهمال شريك الحياة له لحساب علاقته الأخوية، نبتت بذور التفاهم الصامت بين ابنتك وزوج الشقيقة على أن كلاً منهما ضحية للطرف الآخر، وحدث التقارب الذى يقع غالبًا بين أصحاب التعاسة المشتركة، وعلى طريقة «والمصائب تجمعن المصابينا» كما يقول الشاعر العربى.. لهذا فقد فوجئت أنت يا سيدتى بزوج الشقيقة يتقدم إليك طالبًا يد ابنتك.. وفوجئت أيضًا بقبولها له دون تفكير ولا مراجعة للنفس. ولا عجب فى ذلك رغم غرابة الأمر، لأنه فى النهاية لم يكن مفاجأة إلا لك

وحدك، أما هما فالمؤكد أن النار قد سرت تحت الرماد فى ظل هذه الأجواء المواتية، وربطت بينهما لتزيد من تعقيد هذه القصة الشائكة ودوائرها المتشابكة. . إذ لا شك فى أن ابنتك لو كانت قد ارتبطت بأى إنسان آخر فى الوجود عدا زوج شقيقة زوجها السابق لكان ذلك فى صالح طفلها وحقه العادل فى أن يتنقل بين أبوين لا تفرق بينهما مثل هذه المرارة الغائرة فى النفوس وغير القابلة للشفاء فى المدى المنظور، ولكان ذلك أيضًا أفضل وأصلح لأبناء تلك الشقيقة الذين فرضت عليهم الأقدار أن يتنقلوا أيضا ويتمزقوا بين أبوين يحمل كلٌ منهما للآخر ضغائن غير قابلة للنسيان. . ليس بسبب الانفصال فى حد ذاته؛ وإنما لأن الأب قد تزوج من زوجة خالهم السابقة من بين كل نساء الأرض!

إن التعريف العلمى للشذوذ عن المألوف هو أنه يعنى اللجوء إلى البديل مع وجود الأصيل المتاح، والكارثة هى أن هذا الشقيق وشقيقته قد لجأ كلٌ منهما إلى البديل النفسى له فى الاهتمام بالآخر على حساب واجباته تجاه الأصيل المتاح، الذى كان ينبغى أن يتوجه إليه ببعض هذا الاهتمام. ومن هنا جاءت المشكلة التى يدفع الآن ثمنها ـ للأسف ـ أبناء الطرفين.

وها أنت يا سيدتى تساهمين بدورك فى تشابك هذه الدوائر المعقدة بترددك أمام تكرار أداء نفس الرسالة التى قمت بها مع ابنيك مع هذا

الطفل الحائر.. وتتساءلين ماذا تفعلين به، وهل تأمنين عليه فى رعاية زوجة أبيه، أم فى حضانة أمه وهى فى كنف خصم أبيه اللدود؟

ولست فى الحقيقة أنكر عليك حقك فى الراحة بعد عناء الرحلة الطويلة، ولا حقك فى أن تعيشى حياتك كما تشاءين فى كنف رجل فاضل يرغب فى الارتباط بك بعد أن أديت الرسالة.. لكنى أتساءل فقط: لماذا ينسى كل الأطراف هذا الطفل الحائر وهم يخططون لحياتهم، فيتزوج الأب ويرحل إلى مدينة ساحلية، وتتزوج الأم من خصمه الذى لا يقبل الأب بانضمام ابنه إلى حضانته مهما كانت الظروف؟

وتفكر الجدة فى الزواج بغير أن يكون لهذا الطفل مكان فى حياتها الجديدة؟ نعم.. لماذا ينسى الجميع هذا الطفل البرىء.. ولماذا لم يفكروا فى شأنه وهم يبدأون جميعًا حياة جديدة؟

لقد تركه أبوه فى رعاية أمه، وانتقل بعد زواجها لرعايتك أنت، وهذا يعنى موافقته الضمنية على استمراره فى رعايتك بغض النظر عما تتخذين من قرارات بشأن حياتك الخاصة، والمفروض أن ينتقل هذا الطفل إذا زهدتِ فى رعايته بعد الزواج إلى حضانة جَدَّيْهِ لأبيه، وهى التالية لك فى أحقية الحضانة إذا أوصدت أبواب الرحمة فى وجهه.

وسؤالى الأخير لك يا سيدتى هو: هل ستثقل عليك حقًا رعاية

هذا الطفل المعذب حتى لو تزوجت من ذلك الرجل الفاضل إذا قبل ببقائه معك أبوه؟ وهل يضير هذا الرجل الفاضل المرشح للارتباط بك وجود طفل خائف مرفوض من أبويه فى كنفه وفى رعاية زوجته، وهو فى النهاية لن يشغلك كثيرًا عن واجباتك الجديدة.. ولن يحرمك شيئًا من حقك فى الاستمتاع بالحياة، بل ربما أضاف إلى حياتك البهجة والابتسامة.. وسوف يكون ذلك بالتأكيد قربى جديدة تتقربين بها إلى الله لكى يحفظ عليك سعادتك الجديدة ؟

إننى لا أطالبك ولا ألزمك بشىء، فالفضل لا يُطلب من أحد، وإنما ينبغى أن يجىء منه تطوعًا.. فإذا كانت الإجابة بنعم.. فبها ونعمت، وإن لم تكن فلا مفر من انتقال هذا الطفل البرىء إلى أبيه ليتحمل مسئوليته عنه، سواء ضمه لأسرته الجديدة وراقب معاملة زوجته له، أو نقل حضانته لأمه، وشاركتها أخته ـ التى كانت سببًا رئيسيًّا فى تعاسة هذا الطفل ـ مسئوليتها فى رعايته وتعويضه بعض حرمانه.. والسلام!

(٨)
الكتمـــان

«ليست المشاكل والصعاب هى التى تصنع شقَاء الإنسان، وإنما مدى إحساسه بها!»

أكتب لك هذه الرسالة من إحدى المدن الساحلية لأستشيرك فى أمر هام يخص أحد أفراد أسرتى.. فأنا مهندس فى الثالثة والثلاثين من العمر، والدى يعمل بوظيفة حكومية، ووالدتى ربة بيت متعلمة، ونحن أربعة أشقاء.. ولدان وبنتان، وأنا أكبر الجميع، وقد أنهينا جميعا ـ والحمد لله ـ تعليمنا فى كليات القمة. وأسرتنا متوسطة الحال، ويغلب عليها الطابع الدينى السمح الذى لا يعرف التزمت.. أما المشكلة فهى تخص شقيقى الذى يصغرنى بعامين، وهو شاب دمث الخلق، متدين وخجول وحساس ويتسم بالوسامة ونقاء الروح والمرح، وقد أنهى دراسته الثانوية بتفوق والتحق بإحدى الكليات العملية، وحين قارب التخرج فيها بدأت الأسرة تتحدث فى أمر زواجه وترشح له أكثر من فتاة مناسبة من العائلة أو من المعارف،

لكنه أخبرنى ـ وهو سعيد ـ بأنه مرتبط عاطفيًّا بزميلة له فى الكلية، طيبة ومتدينة ورقيقة ووجهها هادئ ومريح، وتمثل له كل ما يتمناه فى شريكة حياته، كما أنها تبادله الإعجاب والاهتمام، وينتظر انتهاءه من امتحان البكالوريوس ليتقدم لأسرتها رسميا. وكان يحدثنى عنها بسعادة وابتهاج، فسعدت بسعادته وتمنيت له التوفيق فى حياته، وجاء الامتحان ونجح شقيقى فيه، وتخرج والتحق بوظيفة حكومية، لكنه لم يفاتح أبى وأمى فى موضوع ارتباطه كما توقعت، وسألته عن السبب فى ذلك، فأجابنى بصوت يغلب عليه التأثر بأنه قد صرف النظر عن هذا الأمر لأنه تبين له أنه وفتاته لا يصلحان أحدهما للآخر. وتصورت أن خلافًا قد وقع بينهما وانتهى بالفراق، فأسفت لذلك وتمنيت له التوفيق مع غيرها فى المستقبل، وكنت قد تخرجت قبل عامين وعملت بإحدى الوظائف، وتزوجت مستعينًا بمساعدة أبى، وبعد سنوات تخرجت شقيقتاى وتزوجت كل منهما.. أما شقيقى فقد شُغل بعمله وأكمل دراسته العليا فحصل على الدبلوم ثم الماجستير، ولاحظت عليه أنه يمضى يومه بين العمل والقراءة والصلاة وتلاوة القرآن الكريم وأداء الواجبات الاجتماعية، أو سماع الموسيقى وممارسة رياضة المشى. وبسبب دماثة خلقه وسلوكه المهذب فلقد حظى بحب الجميع دائمًا، ورحبت أسر كثيرة بمصاهرته، ولست أقول ذلك تأثرًا بصلة الرحم معه، وإنما لأنها حقيقة مجردة ويلمسها الجميع، حتى أننى كنت أحيانًا أشعر ببعض الغيرة الخفيفة منه لكثرة

الترحيب والثناء الذى ينهال عليه من الآخرين كلما اجتمعنا معًا فى بعض المناسبات الاجتماعية أو العائلية.

ورغم كل ذلك فلقد وجدته لا يرحب بحديث الأسرة عن زواجه وبما تعرضه عليه العائلات من ترحيبها بارتباطها به، وكلما عرضنا عليه فتاة من فتيات هذه الأسر أجاب بحياء إنها فتاة ممتازة وأسرتها طيبة لكنها للأسف لا تناسبه، ثم يغير الموضوع ويتجنب الخوض فيه مرة أخرى. وقد كنت وما زلت من المعجبين ببريد الجمعة، وكذلك أخى، وكثيرًا ما تشاركنا فى الحديث عما يعرضه من صور إنسانية صادقة لحياة البشر، وتألمنا لما يصيبهم من أحزان، وسعدنا بلحظات الفرح التى تأتيهم بعد الشدة، فلفت نظرى منذ شهور شىء هام يتعلق ببريد الجمعة وبشقيقى معا.. فقد حدث أن قرأت فى بابك مشكلة شاب يتمتع بكل الصفات والمزايا الطيبة التى ترشحه للزواج من أفضل الفتيات، لكنه اكتشف للأسف وبطريق الصدفة أنه غير قادر على الإنجاب.. فلفت نظرى بشدة أن شقيقى قد اهتم بهذه القصة اهتمامًا غير عادى وأنه أعاد قراءتها عدة مرات، وكلما قرأها ازداد تأثره بها، واغرورقت عيناه بالدمع، كما لفت نظرى أيضًا أنه يطيل السجود فى الصلاة كأنه يناجى ربه ويدعوه دعاء حارًا متصلا.. وهذا هو حال أفراد أسرتنا عند شعور أحدهم بالحزن والهم.

ثم حدث بعد ذلك أن تحدثت قريبة جامعية رقيقة إلى زوجتى بلا مواربة عن إعجابها بأخى وكيف أنها تتمناه لنفسها، ونقلت زوجتى هذا الحديث إِلَىّ، فحدثت شقيقى عنها، فأجابنى إجابته المعهودة، وألححت عليه بالأمر فراح يتعلل بأعذار غير مقنعة، وازداد إلحاحى عليه بأن يصارحنى بما أشعر بأنه يخفيه عنى، إذ ما قيمة الإخوة إذن إذا كان كل منا سوف يحتفظ بهمومه لنفسه ولا يتخفف منها بإشراك أخيه فيها؟.. فبدأ بعد عناء شديد وبعد تعهد منى بكتمان ما يصارحنى به، يحكى لى أنه قد اكتشف بمحض الصدفة وهو يستعد لإنهاء دراسته الجامعية، أنه غير قادر على الإنجاب، وإن كان قادرًا على الزواج بالطبع، فصدم بهذه الحقيقة صدمة شديدة زلزلت كيانه، وأحجم عن التقدم لزميلته التى كان يتمنى الارتباط بها، وكتم سره عن الجميع خاصة أبى وأمى تخوفًا من إيلامهما، ثم استعاد ثباته بعد فترة وسلم أمره لله وتفرغ لعمله وحياته صارفًا النظر عن الزواج والارتباط. ولم تدهشنى القصة التى تتكرر كثيرًا فى الحياة فى حد ذاتها، بقدر ما أدهشتنى قدرة شقيقى على الكتمان، والانفراد بمشكلته حوالى عشر سنوات طويلة دون أدنى مشاركة له فيها من أقرب الناس إليه. ومع أنى أعلم من خبرة الحياة وقراءة مشاكل المهمومين فى بابك أن مشكلته قد تهون إلى جوار مشاكل أخرى كثيرة فى الحياة، إلا أننى أعلم أيضًا أننا نتخلص من نصف إحساسنا بالمشكلة بمجرد الحديث عنها مع من نثق فيهم ونرتاح إليهم.

وقد تحدثنا طويلاً فى المشكلة، والواضح لنا من خلال مناقشاتنا أن هناك عدة اختيارات وحلول لها، وأن أفضلها ـ كما يقول شقيقى ـ وأنسبها إليه هو أن يتزوج من فتاة تناسبه اجتماعيًّا وثقافيًّا وخلقيًّا وتتشابه ظروفها مع ظروفه، أى أن تكون قد اكتشفت أيضًا بطريق الصدفة أنها غير قادرة على الإنجاب، وهو حل مثالى لمشكلته، لكنه من الصعوبة بمكان أيضًا، لأنه لا يستطيع ـ كما قال لى ـ أن يحدث كل فتاة يراها مناسبة له عن ظروفه الشخصية ثم يسألها عن ظروفها.. والاختيار الثانى هو أن يرتبط بسيدة سبق لها الزواج ولم يستمر زواجها لعدم قدرتها على الإنجاب، والثالث هو أن يتزوج مطلقة أو أرملة لها أطفال ولا تحتاج إلى مزيد منهم. أما الزواج من زميلة أو قريبة عن حب وإعجاب يدفعانها إلى تفهم ظروفه والتضحية من أجله بأمومتها، فهو حل بالغ الرومانسية ـ كما يقول شقيقى ـ لأنه مع استمرار الحياة قد تشعر الزوجة بالحنين للإنجاب أو يشعر شقيقى بثقل التضحية من جانبها وظلمه لها، فتتعقد الحياة بينهما، وهكذا فإنك ترى أن الأمر فى النهاية وفى كل الأحوال إنما يعتمد على المصادفة إلى حد كبير، والتى قد تحدث اليوم وقد تتأخر سنوات.

إن شقيقى يردد أمامى دائمًا أن ما أصابه إنما هو ابتلاء من الله واختبار لإيمانه، ويتحدث عن ذلك باقتناع وابتسامة راضية، ويؤمن

بأن الله سوف يهديه إلى ما فيه صلاح أمره فى الوقت المناسب. . فما رأيك فى كل ذلك يا سيدى. . وهل ترى له حلاً غير هذه الحلول والاختيارات التى قتلناها بحثًا خلال الفترة الأخيرة. . وكيف ننفذها إذا أردنا ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

ليست المشاكل والصعاب هى التى تصنع شقاء الإنسان، وإنما مدى إحساسه بها، فالإنسان قد يكون محاطًا بالمشاكل من كل جانب حتى ليتعذر على من يلاحظه أن يتصور كيف يستطيع تحملها، لكنه رغم ذلك قد يعيش حياته آمنًا. . وراضيًا، لا لأن حياته قد خلت من المشاكل، وإنما لأنه لا يكاد يحس بها. . أو لأن إحساسه بها ليس عاليًا ولا عميقًا ولا يحول دون قدرته على مواصلة الحياة والاستمتاع بها. وقد يكون الإنسان على الناحية الأخرى مغبوطًا من الآخرين على حياته وما أتيح له من أسباب للاستمتاع بها، لكنه يشعر شعورًا حادًا ببعض نواقصه أو ببعض مشاكله العادية التى لا تخلو منها حياة، فيفسد عليه هذا الشعور المرضى قدرته على الاستمتاع بالحياة أو حتى على القبول بها. وهكذا فإن عمق الإحساس بالمشكلة هو الذى يصنع شقاء الإنسان بها وليست المشكلة فى حد ذاتها.

وتكتم شقيقك لمشكلته حتى عن أقرب الناس إليه طوال عشر سنوات، يعكس حدة إحساسه بها ومعاناته معها، ولاشك أنه قد

أخطأ كثيرًا فى حق نفسه بهذا الكتمان الذى يضاعف من إحساسه بمأساوية ظروفه، ويحصره فى دائرة مشكلته بلا أية محاولة للتخفف من آلامه بالحديث عنها مع أقرب الناس إليه، أو بممارسة وظيفة الإفضاء النفسية الضرورية التى تساعد المهموم على التخلص من بعض البخار الجاثم على الصدر كالحجر الثقيل.

والشاعر العربى القديم يقول:

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة   فيواسيك أو يسليك أو يتـــوجع

و(رجل الأقدار) نابليون بونابرت الذى ساد أوروبا فى مطلع القرن التاسع عشر وكتب عنه المؤرخون أنه كان يلهو بتيجان ممالكها كما يلهو غيره بقطع الشطرنج، رجل الأقدار هذا قد أُثِرَ عنه قوله: أنا أضعف من أن أكتم آلامى الشخصية.. أو أحتفظَ بها لنفسى وحدى!

ووظيفة الإفضاء ليست مجرد تنفيس عن البخار المكتوم بهدف التخفف من وطأة الألم، لكنها تؤدى وظيفة أخرى لا تقل أهمية عن ذلك، هى الإسهام فى إكساب المهموم النظرة الموضوعية الضرورية لمشكلته. فاستسلام الإنسان لميله الغريزى للرثاء للنفس قد يضخم من حجم مشاكله ويوهمه أنها مشاكل أسطورية لا قِبَلَ لأحد بها، فى حين يتيح له الإفضاء بها والحديث عنها مع الآخرين أن يعرف آراء من ينظرون إليها من خارج الدائرة، وتكون أحكامهم عليها غالبًا أكثر واقعية ممن يعانيها ويتكبدها.

ثم كيف يتلمس الإنسان فى النهاية حلاً لمشاكله إذا كان لا يبوح بها لمن يهتمون بأمره ويستطيعون مساعدته فى مواجهتها؟.. وفى حالة شقيقك فلا شك أنك وشقيقتيك كان من المحتمل أن ترشدوه إلى بغيته خلال السنوات العشر الماضية، لو كنتم قد عرفتم عمق مشكلته ونوعيتها، لكنه كلف نفسه عنتًا شديدًا بانفراده بهمه وحده وتكتمه له..

إن هناك نوعًا من مشاكل الحياة لا مفر للإنسان من أن يتعلم كيف (يعيش بها). وهذا التعبير الأخير قد بدأ يتردد بكثرة فى السنوات الأخيرة فى مصطلحات طب النفس العلاجى فى الغرب، ومفاده أنه من مشاكل الإنسان ما لا يجدى معه أى حل سوى أن يدرب الإنسان نفسه على احتمال الحياة بل والاستمتاع بها أيضًا، مع وجود هذه المشاكل فى حياته وتسليمه بها، وهذا أيضًا ما ينبغى لشقيقك أن يوطن نفسه عليه ويتكيف معه، والبدائل التى قتلتماها بحثًا لحل مشكلته هى البدائل الوحيدة المتاحة فعلاً لمواجهتها، وهى بترتيب الأفضلية تأتى كما أوردتها فى رسالتك تمامًا، والحياة من حولنا مليئة بمن تناسبهن ظروف شقيقك، وسوف يجدن فيه البلسم الشافى لجراحهن، لكن المشكلة حقًّا هى أن يعرف كل طرف بغيته لكى يسعى إليها، خاصة مع حالة التكتم التى يحيط بها البعض ظروفهم الشخصية المماثلة كأنها (عار) لا ينبغى أن يطلع عليه أحد، أو كأنها

ظروف إرادية اختاروها لأنفسهم بملء إرادتهم ثم خجلوا بعد ذلك من أن يطلع الآخرون على (سوء اختيارهم).

وبهذه المناسبة فلقد تناقشت مع أكثر من طبيب مختص حول حالات مماثلة لحالة شقيقك أتيح لى الاقتراب منها فى الفترة الأخيرة، ولفتت نظرى بكثرتها النسبية، ففهمت منهم أن بعض حالات عجز الشباب عن الإنجاب إنما ترجع إلى عيب خلقى بسيط يولدون به، وإنه لو لوحظ هذا العيب فى طفولتهم وقبل إدراكهم سن البلوغ، فإنه يعالج بسهولة بإجراء جراحة سهلة ومأمونة تحقق لهم القدرة على الإنجاب، أما إذا تأخر اكتشافه إلى ما بعد سن البلوغ؛ فإن الجراحة لا تجدى فى علاجه، ومن هنا تأتى أهمية اهتمام الأبوين بملاحظة كل كبيرة وصغيرة فى وليدهما والمبادرة بعرضه على الطبيب المختص عند الاستراابة.. فى أى شيء.

فلعل شقيقك قد علم بهذه الحقيقة بشكل أو بآخر خلال بحثه عن علاج لمشكلته لدى الأطباء، ولعل ما علمه من هذا الأمر قد أرهف إحساسه تجاه أبويه ودفعه لأن يتكتم همه عنهما تحسسًا من إيلامهما أو إشعارهما بأى تقصير غير متعمد تجاهه، ولاشك أنه إحساس نبيل يشهد له بسمو الخلق ونقاء السريرة، ويؤهله بحق لكل ما وصفته به من صفات رفيعة، ويرشحه لكل خير فى الحياة.. وللسعادة مع من سوف تختارها له العناية الإلهية فى أقرب وقت بإذن الله..



(٩)
الأمل الأخيـر

يسخر من المجروح، من لا يعرف الألم، أو من يضمن أن ينجو منه فى قادم الأيام، وليس هناك من لم يعرف الألم ولا من يضمن نجاتَه منه فى أية مرحلة من العمر!

هذه هى رسالتى الثانية إليك، فقد أرسلت إليك رسالتى الأولى منذ أكثر من شهرين، وطال انتظارى لرأيكم فيها.. فهل حالى مع بريدكم كحالى مع الأيام؟

لقد قرأت رسالة «الكتمان» التى كتبها قارئ عن شقيقه الشاب الذى يتهرب من الزواج لأنه قد اكتشف بطريق المصادفة أنه غير قادر على الإنجاب، وتكتم همه طويلاً حتى باح به أخيرًا لشقيقه الوحيد بعد إلحاح شديد منه، وقد قرأت ردكم الجميل عليه وقولك له إن الإفضاء بهمومنا قد يخفف عنا فى كثير من الأحيان بعض آلامنا وأحزاننا، وقد نتوصل من خلاله إلى بصيص من الأمل فى حل

١

مشاكلنا. . إذ كيف يساعدنا الأعزاء على حلها وهم لا يدرون بوجودها أصلا؟

وأنا أتفق معك فى هذا الرأى، لكن لى إضافة (مؤلمة) له من واقع تجربتى الشخصية، وهى أن الإفضاء قد يحقق ذلك فى كثير من الأحيان حقًّا، لكنه فى أحيان أخرى قد لا نجنى منه سوى التهكم والسخرية ومضاعفة آلامنا وإحساسنا بالعار. . إذا كانت المشكلة التى نعانيها قدرية ولا ذنب لنا فيها. فأنا ياسيدى شاب أقترب من الرابعة والثلاثين من العمر، وقد كان عمرى عامين فقط حين هجر أبى البيت وتزوج بامرأة أخرى وتخلى عن جميع مسئولياته عنا، فعشت أنا وأمى وإخوتى نعانى الفقر والحرمان حتى مضت السنوات القاسية بخيرها وشرها، وحصلت على الثانوية العامة، ثم التحقت بمعهد فوق المتوسط وحصلت على شهادتى، وتزوج أخى الأكبر، ثم تزوجت شقيقاتى زيجات بسيطة كحالنا، ولم يبق فى بيت الأسرة سواى وأمى التى عانت فى حياتها الكثير وتحملت الكثير واختزنت المعاناة، حتى إذا ما التحقت بالخدمة العسكرية، انهارت مقاومتها فجأة وأصيبت بالاكتئاب النفسى، وأصبحت لا تدرى شيئًا عما حولها ولا تدرى أبسط الأشياء، ثم اختارت أن تنهى حياتها بيدها فى حادث مروع ما زال يدمى قلبى حتى الآن، وبعد رحيلها عن الحياة بفترة قصيرة ـ رحمها الله وعوضها فى جنان السماء عما عانت فى الدنيا

من حرمان وآلام ـ توفى أخى الأكبر فى حادث أشد إيلاما، وقد كان عونى وسندى الوحيد فى الحياة.. رحمه الله وأثابه موفور الثواب، وقد وقع الحادثان الأليمان وأنا ما زلت أؤدى خدمتى العسكرية، فخرجت منها لأجد نفسى وحيدًا بعد فراق الأحباب، لا يؤنس وحدتى سوى حزنى عليهما ودعائى لهما، وعملت فى مهنة شاقة لا يحتملها جسدى النحيل.. وعشت بمفردى فى البيت بلا أنيس يشاركنى حياتى أو يلبى لى احتياجاتى اليومية بعد عودتى من العمل الشاق، وتناسيت فكرة الزواج تمامًا نظرًا لظروفى المادية، إلى أن حدثتنى إحدى شقيقاتى منذ عام عن فتاة من معارفها، فصارحتها بما تعلمه جيدًا عن أحوالى المادية وعدم قدرتى على تكاليف الزواج، لكنها فاجأتنى بأن أهل الفتاة يعرفون كل شىء عن ظروفى ويقبلون بها، فراجعت نفسى طويلا، وانتهيت إلى قرار بالارتباط بهذه الفتاة لما أعرفه من أخلاقها الكريمة. وتم التعارف بيننا، ثم تمت الخطبة أيضًا، ووجدت فى فتاتى ما عوضنى عن ظروفى وأحزانى، فكانت إنسانة رقيقة وطيبة القلب ومتفهمة لظروفى، وازداد تعلقى بها وتعلقها بى، ولم تدخر وسعا فى إشعارى بسعادتها، لارتباطها بى، فشعرت بأننى أخرج من دائرة الأحزان وأعود للتفاؤل بالحياة من جديد.

لكنى رغم ذلك كنت أشعر بشىء أتوجس منه وأخشاه وأظنه من

أثر الإرهاق والعمل الشاق، فذهبت للطبيب لأتأكد منه، وأجريت التحاليل والاختبارات المختلفة، فإذا بى أعرف أننى لن أستطيع الزواج على الفور لأننى لن أقدر على القيام بواجباتى الزوجية، وأكد الطبيب أننى بعد العلاج سأعود إلى حالتى الطبيعية بإذن الله، فواظبت على العلاج وقلبى مثقل بحزن مكتوم لا أستطيع البوح به لأحد، وأنفقت كل ما كان معى من مدخرات على العلاج بلا فائدة، وأخبرنى الطبيب أن أمامى مرحلة أخرى من العلاج، لكنى وجدت أن إمكاناتى لا تسمح لى بالاستمرار فيه؛ فتوقفت صاغرًا، ووجدت نفسى أواجه وحيدًا أبشع ما يمكن أن يواجهه رجل، فقررت الابتعاد عن خطيبتى بغير إبداء أسباب، وراحت هى تسعى لتعرف أسباب ابتعادى عنها، لكنى تحاشيت لقاءها وتركتها وأنا لا زاد لى فى الدنيا سوى حبى لها، وكتمت سرى وحزنى عن الجميع.. فأصبحت فى نظرها خائنًا لعهد الحب وغادرًا، وهى لا تدرى أن حرصى عليها كان أكبر من حرصى على أى شىء آخر فى الحياة، وأنها كانت الأمل الأخير لى فى الدنيا.

وسرى الآن يمزقنى.. فقل لى يا سيدى: كيف أستطيع أن أبوح به؟.. ولمن أبوح؟.. وماذا أجنى من ذلك سوى القليل من المواساة والكثير من التهكم والسخرية من مثل هذه الحالات.. وماذا سأجنى سوى زيادة آلامى وأحزانى!

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

يسخر من المجروح من لا يعرف الألم يا صديقى، أو من يضمن أن ينجو منه فى أية مرحلة من مراحل العمر، ولأنه ليس هناك بشر لا يعرفون الألم الإنسانى أو يتحصنون ضده بما يضمن لهم حمايتهم منه فى قادم الأيام، فإن احتمال أن يسخر (إنسان) من آلامك وأحزانك احتمال شبه منعدم، اللهم إلا إذا كان من (إخوان الصنوبر) الذين قال عنهم الكاتب والشاعر الأمريكى هنرى ثورو: إنهم يشاركون أشجار الصنوبر والأحجار الصماء عجزها عن المشاعر الإنسانية.

ومع ذلك فليس معنى الإفضاء هو أن نعرض آلامنا وجراحنا النازفة على الجميع بلا احترام لخصوصياتنا، وإنما أن نتخفف فقط من بعض ضغوطها القاسية علينا بالحديث عنها مع من نثق فى صدق تعاطفهم الإنسانى معنا وإخلاص مشاركتهم لنا فى آلامنا من الأعزاء المقربين، وبنفس الهدف الذى أشرت إليه من قبل وهو التخفيف عن النفس والتماس السبل الممكنة لحل مشاكلنا لدى من يقدرون على المساعدة فى حلها.

ولقد مارست أنت وظيفة الإفضاء النفسية والضرورية هذه فى رسالتك من حيث لا تدرى، ورغم إنكارك لملاءمتها لآلامك

الشخصية أعانك الله عليها، وربما يسهم ذلك أيضا فى مساعدتك على التخلص منها بشكل أو بآخر بإذن الله.

فلا تخجل من أحزانك يا صديقى.. ولاتعتبرها (عارا) تتخفى به عن الدنيا وتتوجس من سخرية الآخرين منه، فأى عار فى أقدار الإنسان التى فرضت عليه ولم يخترها لنفسه، وأى عذاب وجحيم فى أن ينفرد الإنسان بهمومه وأحزانه فيقاسيها وحده فوق قمة جبل العزلة والوحشة الإنسانية ؟

إن ظروفك المأساوية كلها قد تضافرت عليك للأسف وأضعفت من قدرتك على الصمود للشدائد، ولا لوم عليك ولا عتاب فى ذلك، فالمعاناة القاسية الطويلة قد تستهلك أحيانًا قدرة البشر على المقاومة.. بل وقدرتهم على الاستعداد للسعادة أيضا، وما جرى لوالدتك مثال أليم لذلك، فلقد التهمها الشقاء الطويل ـ رحمها الله ـ فانهارت مقاومتها فى النهاية وأصيبت بالاكتئاب النفسى، والمؤلم حقا أنها قد استسلمت لظروفها القاسية بعد رحلة المعاناة البطولية، فأنهت حياتها بيديها قبل خط النهاية بخطوات.. وحين آن للقلب المتعب أن يتنسم بعض نسائم الراحة. لكن هكذا تجرى أمور الحياة فى بعض الأحيان للأسف، وقد تنطوى صفحة عمر البعض ولما يؤذن بعد للقلب العليل أن يعرف طعم الراحة.. كأن الراحة ـ حقًّا ـ ترف لا

يعرفه البسطاء، كما جاء على لسان الكهل البائس مقار ديوفشكين فى رواية دستويفسكى العظيم (المساكين).

على أية حال.. ومهما كانت قسوة الظروف، فلا مفر من أن يواجه كل إنسان أقداره بشجاعة وكما يفعل الشرفاء، وحالتك قابلة للشفاء التام بإذن الله، لكنها تتطلب صبراً وتكلفه مادية لا تسمح بها ظروفك، والذى لا يعلمه كثيرون ممن يتخفّون بآلامهم المماثلة لآلامك، أن خدمة العلاج الحديث والناجح لهذه الآلام متاحة مجانًا لكل من يحتاج إليها بقسم أمراض الذكورة بمستشفى قصر العينى الجامعى، ورئيسه وأساتذته وأطباؤه متعاونون ويتفهمون عمق معاناة مرضاهم، فاتَّصِلْ بى ولا تتردد ولا تخجل من أحزانك، فسوف يتوافر لك العلاج الناجح بإذن الله، وسوف تسترد (أملك الأخير) فى الحياة، وتستعيد فتاتك الرقيقة الطيبة التى آثرت أن تبدو فى عينيها خائنًا وغادراً على أن تشركها معك فى معاناتك، ولو كنت قد طالبتها بالصبر عليك بعض الوقت حتى ولو لم تَبُحْ لها بأحزانك، لما ترددت فى التمسك بك، ولربما أعانك وجودها فى حياتك على الشفاء الذى تؤثر فيه بالفعل الحالة النفسية الطيبة والمتفائلة، لكنك شئت غير ذلك، ولست ألومك عليه، فكل إنسان أدرى بما يستطيع احتماله، ولا يعرف الألم فى النهاية إلاّ من يكابده.. فتفاءل خيراً بإذن الله.. والله فعال لما يريد.


قطب

(١٠)

الوصيـــة

«إن الخلاف هو مَحَكٌّ الأخلاق الحقيقية للإنسان، وليست أوقات الصفاء ولا مرحلة الرغبة فى الآخرين والتودد إليهم»

أنا سيدة فى الثالثة والأربعين من العمر، تزوجت منذ عشرين عاما من شاب يكبرنى بثمانى سنوات ويعمل موظفًا بإحدى المصالح الحكومية، ولم يشأ لنا الله أن ننجب أطفالاً لعقم زوجى، لكنى لم أفكر لحظة فى الانفصال عنه، رغم تحريض أهلى لى على ذلك طوال السنوات الأولى من زواجنا، وكان تقديرى فى ذلك هو أن زوجى إنسان طيب وعطوف وحنون ومحبوب من الجميع ويحبنى حبًّــا كبيرًا ولا يتوانى عن محاولة إسعادى وإرضائى بكل السبل، فكيف أحرم نفسى من عشرته الجميلة لسبب لا إرادة له فيه.

حتى زوجى نفسه عرض عَلَىَّ بعد بضع سنوات من الزواج وبعد أن صنع المستحيل لكى ينجب ويئس نهائيًّــا من إمكانية ذلك، أن

ينفصل عنى لكى أتزوج غيره وأنجب أطفالاً، لكننى نهيته عن العودة لهذا الحديث مرة أخرى، وأكدت له أننى أحبه وأريده هو وليس أحداً غيره.. ثم إن حياتى سعيدة ولا أعرف معه سوى المرح والضحك والدلع وكل شىء جميل فى الحياة، وهو رجل متدين ويعرف حقوق ربه ولايقصر معى فى شىء.. فلماذا أهدم حياتى وسعادتى من أجل أمر لم تشأه لنا إرادة الله؟

لقد مضت بنا سنوات العمر سعيدة بهيجة.. وتفانى زوجى فى حبى والإخلاص لى، وبذل كل ما فى وسعه للحصول على شقة أوسع وأجمل وتطل على منظر ساحر، لكى ننتقل إليها وأسعد بالحياة فيها.. وكان يتنبأ برغباتى وأمنياتى ويسرع بتحقيقها لى، وتفانيت أنا أيضًا فى حبه والإخلاص له، وتمنيت من ربى أن تطول حياتنا معًا حتى أسبقه إلى العالم الآخر.

ومنذ شهور مرض زوجى بمرض مزمن لعين ظهرت عليه أعراضه فجأة، وبذلت كل جهدى لرعايته فى مرضه ولازمته فى مراحل العلاج ليل نهار، ثم غدرت بنا الأيام فجأة واختاره الله إلى جواره، وماتت البهجة التى كانت تظلل شقتى، وتغيرت الدنيا تمامًا من حولى، وبعد أن كانت زيجتى أسعد الزيجات بين إخوتى، وجدت نفسى فجأة إنسانة وحيدة تمامًا، أعيش فى مسكنى الذى ما زالت تتردد فيه أنفاس زوجى الحبيب وتتراءى لى فيه ذكرياته.

وبعد أسبوع من الوفاة شاركتنى خلاله أمى الإقامة معى فى مسكنى، نصحنى الجميع بالعودة إلى العمل لكى أنشغل به عن أحزانى.. لكن هيهات أن أستطيع ذلك ياسيدى، فأنا أرى زوجى خلال سيرى فى الشارع.. وأراه فى وجوه الجيران الذين كانوا يحبونه، وتعلق أملى فى أن تبقى معى أمى فى مسكنى الخالى لفترة طويلة، لكن أخى المتزوج لم يستطع الصبر على بقاء أمى معى أكثر من أيام لأنه يعيش معها ومع أبيه وزوجته وأولاده وأخى الأصغر، ويريد أن تعود أمى إلى بيت الأسرة الضيق المزدحم بسكانه لكى ترعى أولاده الصغار خلال غيابه وزوجته فى العمل، مع أن والدة زوجته تستطيع أن تقوم بنفس المهمة.. لكن كيف تكون أمه على قيد الحياة ويرسل أبناءه إلى أم زوجته كما قال لى مستنكرًا؟!

لقد راح شقيقى ـ سامحه الله ـ يحرّض أبى على إعادة أمى للبيت بدعوى أن ترعى شئونه.. وجاء إلىّ يتوعدنى بعقاب السماء لأننى أحتكر أمى لنفسى وأحرم أباه الشيخ من حقوقه عليها فى رعايته. فرجعت أمى إلى بيتها، ووجدت نفسى وحيدة تمامًا.. أجلس فى مسكنى من الظهر حتى الصباح.. أبكى نفسى وحياتى وسعادتى التى ذهبت إلى غير رجعة، ولولا سيدة مسنة كانت تقوم ببعض شئوننا فى حياة زوجى، وكان هو يحنو عليها وعلى أولادها، لانهرت واستسلمت للاكتئاب النفسى. فقد تطوعت هذه السيدة بأن تبيت

معى إكرامًا لذكرى زوجى الطيب الذى كان يعطف عليها، فأصبحت تأتى لقضاء الليل عندى وتخرج معى فى الصباح، فأذهب إلى عملى وتذهب هى إلى بيتها.. فإذا منعها مانع من المجىء اضطررت لقضاء الليل الطويل وحدى.. أو ذهبت للمبيت لدى إحدى شقيقاتى المتزوجات حتى أصبحت أحمل معى دائمًا كيسًا من البلاستيك به فستان للبيت ومشط وفرشاة أسنان استعدادًا للطوارئ، أما مسكن أبى وأمى فهو يضيق بمن فيه، وذهابى إليه يزيد من معاناتى لأنه لا مكان لى فيه، ولأن إخوتى الذكور يضيقون بحزنى وبكائى الدائم على زوجى ووحدتى، كما أنهم لا يزوروننى فى مسكنى، وتمضى أيام الإجازات بى وأنا فى وحدة قاتلة حتى تمنيت ألا تتعطل المصالح الحكومية عن العمل أبدًا فى أية مناسبة دينية أو وطنية لكى أخرج للعمل كل يوم وأجد من أتكلم معه، فلقد أمضيت يومى الإجازة بمناسبة شم النسيم وعيد تحرير سيناء فى أسوأ حال، حتى كدت أتكلم مع نفسى فى الشقة الصامتة، وتكرر نفس الحال يوم إجازة عيد العمال فى أول مايو، ولم يحرص على زيارتى كل أسبوع والاهتمام بأمرى سوى شقيقة زوجى الراحل وبناتها الثلاث، فقد رحن يزرننى كل أسبوع ويحثها زوجها على زيارتى ويزوررنى معهن، وشقيقة زوجى سيدة طيبة وحنون وكانت دائمًا تحبنى وتوصى شقيقها بى، بسبب حرمانى من الإنجاب، وقد ازدادت عطفًا عَلَىَّ بعد رحيله عن الحياة، ولم تنفك عن أن تعبر عن اعتزازها بى باعتبارى من (رائحة

المرحوم) ولأننى كنت له الزوجة المحبة التى أسعدته ورعته طوال حياته وفى مرضه. فازداد تبادل الزيارات بيننا، ولم يعد يمضى أسبوع إلا وتزورنى أو أزورها فى بيتها.

وذات يوم جاءنى زوج شقيقة زوجى وفاجأنى بأن قال لى: إنه قد رأى المرحوم فى نومه وأنه أوصاه بى ورجاه رجاء حارًا أن يتزوجنى وألا يدعنى أبدًا لرجل غيره، لأننى كنت أتمنى الإنجاب فى حياته ولم يستطع أن يحقق لى هذه الأمنية، وزوج شقيقته هو القادر على الإنجاب منى، كما أنه من ناحية أخرى يتمنى أن ينجب من جديد لأن بناته قد كبرن وهو يشتاق لأطفال جدد فى حياته.

ودهشت للمفاجأة.. وصارحته بأنه أمر صعب لأنه سوف يحرجنى إحراجًا شديدًا مع زوجته التى تحبنى، وسوف يحولها إلى خصم لى بعد أن كنا من أقرب الصديقات، كما أنه سيحوِّل بناتها أيضًا إلى عدوات لى، وسوف يكرهننى بشدة بعد أن كن يحببننى، فضلاً عن أن أهلى سوف يعارضون هذا الزواج ولن يوافقوا عليه.

لكنه لم ييأس وطلب منى التفكير فى الأمر، وأكد لى أنه سيتزوج مرة أخرى لينجب من جديد لأنه لم يشبع بعد من الأولاد، سواء قبلت به زوجًا أو رفضته.

وراح بعد ذلك يرجع إلىّ كل بضعة أيام ليقول لى: إنه قد رأى (المرحوم) مرة أخرى فى الحلم وأنه قد كرر عليه الوصية الغالية،

فأكدت له أننى على أية حال لا أستطيع أن أفكر فى هذا الأمر قبل أن يكتمل عـام على الأقـل على رحيل زوجى، فطلب منى أن أستغل فتـرة الانتظار هذه فى التفكير فى الأمر وتقليبه على كل الوجوه، وسوف أجد نفسى فى النهاية موافقة عليـه. ولدهشتى أنا قبل غيرى يا سيدى فلقد وجدت نفسى أفكر فى هذا الأمـر فعـلاً ليل نهار، فلا يشغلنى خاطر غيره.. ووجدت نفسى أقـول إننى أموت فى وحدتى يوميًا وكل فترة تفاجئنى نوبة مرضية، فتسرع السيدة المسنة لإحضار الطبيب الذى يفسرها بأنها اضطراب فى دقات القلب بسبب التوتر الشديد والحزن والاكتئاب والوحدة، والسيدة المسنة التى تمضى الليل معى مريضة بأمراض عديدة وتعجز أحيانًا عن الحضور للمبيت معى، وإخوتى منشغلون عنى بحياتهم وأبنائهم ولا أحد يزورنى منهم إلا نادرًا، وحين أمرض يجيئون كالأغراب ويتركوننى لوحدتى بعد وقت طال أم قصر، والرجل الذى يعرض عَلَىَّ هذا العرض يعمل بوظيفة مرموقة وعلى أخلاق عالية، وهو الذى يحث زوجته وبناته على زيارتى والاهتمام بأمرى خاصة فى المرض.. فهل يكون أمرًا قاسيًا فعلاً لو قبلت الزواج منه وتخلصت من وحدتى؟

إننى حائرة وتائهة ومشتتة ولا أستطيع اتخاذ قرار صائب فى هذا الأمر.. فهل ترشدنى إلى الصواب؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

الأمر لا يستحق كل هذه الحيرة والتشتت والمعاناة ياسيدتى، «فالوصية» التى يحدثك عنها هذا الرجل أكذوبة مفضوحة ولا تثبت أمام التفكير السليم، إذ كيف يقبل عقلك أن يصدق أن زوجك الرجل الحنون العطوف الذى يعرف حقوق ربه جيدًا لا يتخير من الرجال ليوصى به من العالم الآخر زوجًا لك إلا من تشقى شقيقته وتفجع فيه وفيك وفى الخير والوفاء والإنسانية كلها حين تتزوجينه؟

إنها خرافة ساذجة ابتدعها خيال هذا الرجل ليضفى بها طابعًا ميتافيزيقيًّا وهميًّا على رغبته فى أن يتزوج أرملة صهره، بحيث يبدو عرضه لك وكأنه استجابة قدرية لنداءات غامضة من العالم الآخر، مع أن الأشباح قد توقفت عن الظهور للأحياء وإبلاغهم برغباتها، وإشاراتها واجبة التنفيذ.. لا فى الواقع لأنها لم تكن تظهر فيه أصلاً.. وإنما أيضًا فى القصص والمسرحيات الكلاسيكية منذ ظهر شبح الملك القتيل لهاملت المعذب فى رواية شكسبير ليبلغه بتآمر أمه وعمه عليه لقتله لكى يجلس العم على العرش ويتزوج أرملة شقيقه!.. فكيف قبل عقلك إذن هذا الهراء إلا إذا كنت تخدعين نفسك تحت وطأة الوحدة والاكتئاب وتريدين أن تصدقيه أملاً فى التخلص من معاناتك؟

إن الأحلام كما يقول لنا علماء النفس: هى تعبير لا إرادى بالرؤية

عن الرغبات المكبوتة فى العقل الباطن للإنسان، أما الرؤى التى تحمل دلالات جادة فقد اختص بها الله سبحانه وتعالى الأنبياء وعباده الصالحين، الذين لا يمكن أن يتوسلوا بها لإقناع أرملة توفى عنها زوجها منذ شهور بالزواج منهم وهذه الحقيقة وحدها تكفى لتجريد رغبة هذا الرجل فى الزواج منك من الوهم الميتافيزيقى الذى حاول تجميلها به، أما حلم الإنجاب الذى لم يتورع حتى عن استغلاله لإقناعك بالزواج منه، فهو خدعة أخرى لا تقل بشاعة عن الوصية المزعومة، فأنت يا سيدتى فى الثالثة والأربعين من العمر، ولم يسبق لك الإنجاب من قبل، وبالتالى فإن فرصتك فيه إن لم تكن منعدمة فهى ضئيلة للغاية.. فما معنى خداعك بهذا الحلم القديم.. إلا أن يكون تحايلاً رخيصًا عليك للاقتناع بالزواج منه؟

يا سيدتى.. إن من حقك أن تبحثى عن حل لوحدتك ومعاناتك بعد رحيل زوجك، ومن حقك بكل تأكيد أن تتزوجى مرة أخرى وتتعزى بحياة جديدة عن وحدتك وحرمانك من الأطفال، ولست فى حاجة لأن تعتذرى لأحد عن رغبتك هذه ما دمت فى حاجة ماسة إليها، لكن الدنيا من الناحية الأخرى لم تضق على رحبها بحيث لا تتزوجين من بين كل الرجال سوى زوج شقيقة زوجك التى أحبتك دائمًا وحنت عليك فى وحدتك، وحاولت بإخلاص أن تبدد وحشتك وتهتم بأمرك هى وبناتها بعد رحيل زوجك.. نعم لم تضق

الدنيا بما رحبت حتى لا يكون مخرجك من وحدتك ومعاناتك إلا على حساب تعاسة هذه السيدة وبناتها. . وهى التى لم تقدم لك سوى الخير والحب والعطاء الإنسانى منذ ارتبطت بشقيقها، كما أن هذا الرجل ليس آخر الرجال ولا هو أفضلهم بالنسبة إليك، إذ كما رغب فيك ولم يمض على رحيل زوجك سوى بضعة شهور، فلسوف يرغب فيك رجال آخرون لا يسقط ارتباطك بأحدهم اعتبارك لدى أسرة زوجك الراحل كلها، ولا يكسبك زواجك منه عداوة من كنّ أقرب الناس إليك، ولا اعتراض أهلك واحتجاجهم عليك لما سوف ينالهم من رذاذ هذا الزواج اللاإنسانى. وهذا السبب يكفى وحده لأن ترفضى هذا الرجل وتتكتمى عرضه عليك بالزواج عن أسرته، وتطلبى منه بحزم ألا يزورك مرة أخرى مع زوجته وبناته، ومع ذلك فهو ليس السبب الوحيد لرفضه، وإنما هناك من الأسباب والعلامات المخيفة ما يدعوك لرفضه والنجاة من براثنه. . منها أن هذا الرجل ليس أهلاً للثقة فيه أو الاطمئنان إليه، وأكذوبة «الوصية» التى ادعاها على من لا نستطيع دعوته للشهادة على صحتها، دليل كاف على أنه مخادع ولا يتورع عن استغلال كل الحيل والأساليب للتوصل إلى ما يريد ولو استعان بالموتى على ذلك، ومنها كذلك أن من لا يقيم وزنًا للجرح الغائر الذى سيتسبب فيه لزوجته وبناته بزواجه من أرملة شقيق شريكة حياته وزوجة خال بناته، لا يمكن أن يكون الرجل الذى تأمن إليه أرملة وحيدة مثلك تريد أن تجد لديه الأمان

والاستقرار والحماية النفسية بقية العمر، فمن لا يتورع عن إيلام أعزائه بلا مبرر بهذه القسوة التى تشككهم فى جدوى الخير.. والقيم.. والإنسانية باختياره لأرملة شقيق زوجته بالذات لكى يتزوجها.. مثل هذا الرجل يا سيدتى الذى لا يتوقف أمام هذه الاعتبارات العائلية والإنسانية لا يؤمن غدره، فكيف تأمنين أنت له؟ بل وكيف تتصورين حياتك معه إذا اعترضتها بعض العقبات أو المشاكل التى قد لا تخلو منها حياة؟.. هل سيكون أحرص على مشاعرك مما كان مع زوجته، وبناته؟ وهل ستأمنين معه على كرامتك ومشاعرك واستقرارك عند الخلاف؟

إن الخلاف هو محك الأخلاق الحقيقية للإنسان يا سيدتى، وليست أوقات الصفاء أو مرحلة الرغبة فى الآخرين والتودد لهم.. فنحن فى أوقات الصفاء والرغبة فى الآخرين كلنا ظرفاء ولطفاء ومجاملون ورومانسيون، لكن من لا يخرجه منا الغضب والخلاف عن حدود العدل والأدب إلى الفحش فى القول واللّدد فى الخصومة والإيلام البدنى والمعنوى هو وحده من نستطيع أن نثق فى أخلاقياته وقيمه ونطمئن إلى رومانسيته وعدالته وسمو أخلاقه.. فكيف تحكمين على «أخلاقه العالية»، ومجرد تفكيره فى أن يختارك أنت بالذات ـ من بين نساء العالمين ليتزوجك ـ يدحض هذا الحكم وينفيه عنه؟

يا سيدتى.. إن رسولنا الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يقول لنا: «اطلبوا الحوائج بعزة نفس، فإن الأمور تجرى بالمقادير».. وليس من عزة النفس أن يخدع الإنسان نفسه ويوهمها بما لا يصدقه عقله ليبرر لنفسه قبوله لما لا ينبغى له أن يقبله، وليس منها أيضًا أن يضع نفسه موضع الانتقاص واللوم من جميع من حوله لكى ينال ما كان أسهل عليه أن يتعفف عنه حرصًا على سمعته وكرامته واحترام الآخرين له.. وليس منها أخيرًا ـ وليس آخرًا ـ أن يستثير على نفسه كراهية من يحبونه وازدراءهم له، وما كان أسهل عليه أن يتفادى ذلك لو اعتصم بشىء من الصبر والحكمة.. والترفع عن الدنايا.


قطب

(١١)

ليالى الجفاف

«إننى أتعجب لأب يقدر على أن يجعل حياة أبنائه أيسر وأكثر رخاء، فتصفو له نفوسهم ويدعون له بطول العمر، فلا يختار إلا أن يجعل من طول عمره نقْمة على أبنائه، فيدعون ربهم أن يكشَفها عنهم.. فى غمضة عين!»

أكتب إليك يا سيدى عن مشكلة لا تخصنى وحدى، وإنما تخص أسرة بأكملها أملاً فى أن توجهنا للصواب فيها. فأنا طالب فى السنة النهائية بإحدى الكليات النظرية، وقد جئت إلى الحياة فوجدت نفسى عضواً فى أسرة من خمسة أفراد هم: أنا وشقيق وشقيقة وأب وأم، ونحن نقيم فى شقة لا تزيد مساحتها على ٤١ متراً مربعًا ومكونة من حجرتين وصالة صغيرة وحمام مشترك مع الشقة المجاورة لنا، ومطبخ به شباك صغير يعد المنفذ الوحيد للشمس والهواء فى هذه

الشقة الضيقة كالجُحْر. ومع أن الشقة مكونة من حجرتين، فإن أبى ـ وهو غريب الطباع ـ يستقل بحجرة منهما وحده منفردًا بنفسه، وعندما يريد معاشرة أمى فإنه يسمح لها بالنوم عنده تلك الليلة فقط، أما باقى الأيام فنتكدس جميعًا فى الغرفة الأخرى، فأنام أنا وشقيقى على فراش ضيق لا يسمح لأحدنا بأن يتقلب، وتنام أختى على كنبة نسميها فراشًا، وتفرش أمى فى الأرض فراشًا تنام عليه بين الكنبة والسرير، وما أكثر الليالى التى تنتاب أمى فيها نوبات اكتئاب وبكاء متصل لا تدرى خلاله بما تقول، فتسب أبى وتتحسر على زواجها وتحكى لنا كيف طلقت منه مرة فى بداية زواجها منه بسبب مصروف البيت، وكيف باتت لياليَ عديدة تلعن اليوم الذى تقدم فيه لخطبتها، وتشكو لنا من بخله، وكيف أنها إذا اشترت أى شىء من احتياجات البيت فلابد أن تقدم له فاتورة حساب بقيمة ما اشترته، وإذا تبقى معها عشرة قروش من ثمنه استردها منها بلا حرج، فنلتف نحن حول أمى نهدئها ونطالبها بمزيد من الصبر، إلى أن تمر نوبة الاكتئاب بسلام فلا تمضى أيام حتى تعاودها مرة أخرى، ويخيم الهم والضيق علينا من جديد.

والحق أننا كنا على استعداد لأن نصبر على ظروفنا ونعتبر أبى بطلاً لأنه يعلمنا رغم سوء الظروف، لولا شىء واحد سوف تدهش له، وهو أنه ليس فقيرًا ولا معدمًا كما قد تتصور مما ذكرته لك، وإنما

هو مدير لفرع إحدى شركات التأمين الكبرى بإحدى مدن الأقاليم، وله أملاك ورثها عن جدى ـ رحمه الله ـ ولديه حساب بالبنك به رصيد كان يمكن أن نعيش به فى مستوى كريم من العيش كباقى أفراد أسرتنا الذين يرثون لنا مع أننا أفضل منهم ماديا.. فأبى يا سيدي بخيل للغاية، ويعز علىَّ أن أقول لك إننى وإخوتى نتمنى له الموت ونحلم بما سنرثه عنه من المال الذى حرمنا منه رغم شدة حاجتنا إليه!

إننى أعرف أنك لا تحب أن يتحدث الأبناء عن الآباء بهذه اللهجة حتى لو كانوا ظالميهم، لكنى أرجو أن تعذرنا حين تعلم أن أبى المدير وصاحب الأملاك والحساب فى البنك لا يخجل من أن يأتى إلينا بملابس أبناء أقاربنا القديمة أو التى ضاقت عليهم، ويقول لنا بلا حرج: هذه هدية من أولاد عمكم أو خالكم!.. أو حين تعلم أننا نرجوه ويلح عليه كل أقاربنا بأن ينقلنا إلى شقة أوسع نستطيع أن نتنفس فيها ونستقبل أقاربنا، وهو قادر على ذلك، والشقق فى مدينتنا ليست باهظة الثمن كما هو الحال عندكم فى القاهرة، ومع ذلك فهو يرفض بإصرار ذلك ويقول لمن يطالبه بذلك من أهلنا: كل إنسان له نظامه الخاص فى حياته.. وهذا هو نظامى وطبعى.. ناهيك عن أنه يرفض بالطبع أن يساعدنا ونحن فى سن الشباب بأى شىء فى بداية حياتنا، أو بأى شىء يلبى احتياجاتنا كشباب نرى أقاربنا يتمتعون بما نحرم منه.

إن أحد أقاربنا ينصح أمى بأن ترفع عليه دعوى حجر على أملاكه ورصيده فى المحكمة بعد خروجه إلى المعاش خلال شهرين، وقلبى لا يطاوعنى أن نفعل ذلك به، لكن عقلى وحرمانى يدعوانى من ناحية أخرى لقبول الفكرة، خاصة وأن أمى وأختى توافقان عليها. . فبماذا تنصحنى أن أفعل؟ . . إننى أستحلفك بالله ألا تكتب لى وحدى وإنما لكل أسرتى، وأن توجه لأبى كلمة تنصحنا فيها جميعًا بالصواب، والحمد لله فإننا نشترى الأهرام يوم الجمعة فقط حسب أوامر أبى ونظامه لكى نقرأ بابك ونقرأ العدد الأسبوعى. . فأرجو ألا تتأخر فى الرد على رسالتى. . وشكراً لك.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

والله يا صديقى أنه لو كان الحجر على أبيكم يجوز شرعًا وقانونًا لما ترددت فى نصحكم بالحجر عليه وكف يده عن ماله الحبيس لتأخذوا منه ما يكفل لكم العيش الكريم، رغم ما تعرفه من نفورى الشديد من أن ينازع ابن أباه أمام المحاكم مهما كانت الأسباب.

لكن المشكلة هنا ليست فى قبولى للفكرة أو رفضها، وإنما فى أن أحكام الحجر لا تنطبق على حالة أبيكم هذا للأسف، فالحجر هو منع الإنسان من التصرف فى ماله لصغر فى السن أو جنون أو سفه أو مرض مُهلك أو إفلاس، وحكمته فى حالة الصغير الذى لم يبلغ سن الحلم أنه غير قادر على حسن التصرف فى ماله، وبالتالى فإن

تصرفاته المالية غير جائزة إلا برضا والديه أو الوصى عليه ـ إذا كان يتيمًا ـ حتى يبلغ سن الرشد. وحكمته فى حالة السفيه الذى يسىء التصرف فى ماله ويبدده شذرًا فى شهواته أو بسوء تصرفه هى أن يمنع من التصرف فى ماله بهبة أو بيع أو شراء حتى يرشُد، لأنه مستخلف فى مال الله لديه وينبغى عليه أن يحسن التصرف فيه بما لا يضر ورثته، ولا يسىء إلى الحياة فى مجتمعه أو يزيد من صعوبتها على المحرومين، مصداقًا لقوله تعالى: **﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾** (سورة الحديد، الآية:٧). ونفس القاعدة تنطبق على المجنون الذى ضعف إدراكه.

أما فى حالة الإفلاس فحكمته هى كف يد المدين ـ الذى استغرقت ديونه للآخرين جميع أملاكه ـ عن التصرف بالبيع فيما يملك حتى يقضى القاضى ببيعها وتوزيع حصيلة البيع على الغرماء، أى أصحاب الديون.

وكل هذه الأحوال لا تنطبق على أبيك، لأن البخل قد كف يده تلقائيًّا عن التصرف فيما يملك ببيع أو شراء.. أو حتى باستئجار شقة لائقة يقيم فيها مع أولاده بما يتناسب مع مستواه الاجتماعى والعائلى.. فعلى أى أساس إذن تقيمون دعواكم عليه ويده مغلولة إلى صدره بحكم أشد وطأة من حكم القضاء.. هو حكم الشح والتقتير على من يتحمل أمام ربه والمجتمع مسئوليته الكاملة عن توفير الحياة الكريمة لهم؟

وماذا يعنى المال بالنسبة إليه وهو مجمد فى رصيد ميت لا يتحرك فى البنك، وفى أملاك لا يستمتع صاحبها ولا أسرته بعائدها؟!

إن الآباء ليسوا مسئولين فقط عن توفير إمكانيات الحياة الكريمة لأبنائهم، بل وعن توفير هذه الإمكانيات لهم أيضًا بما يتناسب مع مكانتهم الاجتماعية والعائلية وأوضاعهم المادية، وبما لا يشعرهم بالحرمان ولا الدونية تجاه نظرائهم وأندادهم فى الحياة، بل إن هذه المسئولية لتمتد أيضًا إلى إعانتهم على الزواج إذا بلغوا سنه وكان الآباء قادرين على ذلك، وإلا وقع عليهم - أى على الآباء - وزر كل إثم يصيبه هؤلاء الأبناء الذين لم يُعِنْهُمْ آباؤهم القادرون بمالهم على الزواج وإعفاف أنفسهم، كما علمنا ذلك المربى الأعظم، صلوات الله وسلامه عليه. فماذا تريدنى أن أقول لأبيك أكثر من ذلك؟.. وماذا يجدى الحديث مع أب لا يأنف من أن يدعو زوجته إلى فراشه حين يروق له ذلك، غير مبال بمشاعر أبنائه فى سن الشباب، ثم يعيدها إليهم فى اليوم التالى لتفترش الأرض إلى ما لا نهاية، وينفرد هو بأنانيته العجيبة بنصف «الجُحْر» الذى رضى لنفسه ولأبنائه بالحياة فيه؟!

إن البخل آفة لعينة لا شفاء منها ولا أمل فيمن تمكنت منه، ولا جدوى لأى حديث معه، ومع ذلك - ولكراهيتى الشديدة لأن ينازع ابن أباه أمام القضاء - فلن أنصحكم بإقامة دعوى نفقة عليه وهو

التصرف القانونى المناسب لحالتكم، وإنما سأنصحكم فقط ـ وحفاظًا على ما تبقى من مشاعر إنسانية تربطكم به ـ بألا تكفوا عن الضغط عليه والاستعانة بالأهل.. بل وبالغرباء أيضًا، وحبذا لو كانوا من رؤسائه، لتوريطه فى دفع خلو شقة أوسع قليلاً ولا أقول فى شرائها، وربما يجدى الضغط عليه فى هذا الشأن عن طريق تخييره بين أن يتفضل بإخلاء غرفته لوالدتك وشقيقتك على أن ينضم هو إلى غرفة الذكور ويقاسمهم حياتهم فى الغرفة الضيقة، مع فرض هذا العزل عليه إلى ما لانهاية.. وبين أن يتفضل أيضًا باستئجار شقة من ثلاث غرف يكون لك ولشقيقك فيها غرفة مستقلة، ولأمك وشقيقتك غرفة ثانية، ولأبيكم غرفة منفردة كما يشاء ويهوى.. ولا بأس فى هذه الحالة من أن يستضيف فيها زوجته من حين لآخر، وإن كان الرشد والعقل والدين يطالبونه بأن يقاسم زوجته غرفته بشكل دائم مراعاة لاعتبارات عديدة أتعجب كيف غابت عنه فى غمار انشغاله عن كل شىء بعبادة رب لا ينفع ولا يضر.. هو المال! كما أتعجب أيضًا لأب يملك ويقدر على أن يجعل حياة أبنائه أيسر وأكثر رخاء، فتصفو له نفوسهم ويدعون له بطول العمر.. فلا يختار ذلك، وإنما يختار أن يجعل من طول عمره نقمة على أبنائه فيدعون ربهم أن يكشفها عنهم فى غمضة عين.. ولله فى خلقه شئون وأعاجيب!



(١٢)

السهم المسموم

«الإنسان الذى يقطع كل الخيوط فى لحظة واحدة مع من كان على وفاق معهم قبل لحظات، ثم ينفجر ضدهم بالفُحش والسخائم كقاذفات اللهب، إنسان لا يؤمن جانبه ولا يمكن أن تستقر سفينة الحياة معه!»

لا أريد برسالتى هذه مطلبًا ولا مسعى لحل مشكلة.. ولكن أريد فقط أن يقرأها من قد يواجهون مثل ظروفى ويستفيدون بدروسها. فأنا فتاة فى الثانية والثلاثين من عمرى، أعمل بهيئة حكومية، وقد رحل أبى عن الحياة منذ ٩ سنوات، فأحسسنا بفراغ كبير فى حياتنا لغيابه، فقد كان حنونًا رقيقًا مع أبنائه، على عكس أمى التى كانت دائمًا مستبدة الرأى ولا تراعى مشاعرنا أو حتى مشاعر أبى كرجل البيت رحمه الله. وبعد رحيل أبى بعدة سنوات تقدم لى وأنا فى

الثامنة والعشرين من عمرى زميل بالعمل يتقاضى مرتبًا محدودًا ووالده عامل مثقل بالأبناء وأمه ربة بيت، وقد حدثتنى عنه زميلة فى العمل ومدحت كثيرًا أخلاقه وطيبة أهله، وعرضت الأمر على أسرتى فرحبت به وتحدد موعد للزيارة، وجاء ومعه أهله وتم الاتفاق على إعلان الخطبة، على أن يتم الزواج خلال ٣ سنوات ليتمكن من تشطيب الشقة المتواضعة التى استأجرها بغير تشطيب فى حى شعبى.

وتمت الخطبة، وأحببت خطيبى لطيبته وحنانه وشدة حبه لى رغم قصور يده عن تقديم أية هدايا لى بسبب ظروفه المعروفة. وكرس خطيبى حياته كلها لإعداد الشقة للزواج.. وراح يعمل فى كل عمل إضافى يتاح له لكى يوفر ما يحتاج له من نقود، غير مبالٍ بمظهره أو بأى شىء آخر، ورحت أنا أيضًا أوفر كل قرش أستطيع توفيره من مرتبى لإعداد نصيبى فى الجهاز، ونسيت كل شىء سوى هذه المهمة الأساسية، وخلال ذلك لاحظت أن أهلى الذين رحبوا بخطيبى فى البداية قد بدأوا ينفرون منه بلا سبب سوى ضعف إمكانياته، ويضيقون به وبزياراته لنا رغم أدبه معهم واحترامه لهم وحرصه على مشاعرهم.. فلم أهتم بموقف أهلى منه، وواصلت الاستعداد للزواج، وانتهى خطيبى خلال عامين من إعداد الشقة، وبدأنا الإعداد لعقد القران والزفاف، وجلس إخوتى فيما بينهم وقرروا أن يشتروا لى الصالون وأن يشترى هو حجرة النوم، وأبلغته القرار، فسعد به كثيرًا وشكرنا عليه بحرارة، ودفع بالفعل مقدم ثمن حجرة

النوم على أن يدفع باقى الثمن بالتقسيط، وطلب أهلى من خطيبى إتمام الزفاف خلال شهر واحد، فرجاهم الصبر عليه أربعة أشهر فقط لكى يدبر نفقات الفرح بعد أن استنفد كل ما كان معه فى إعداد الشقة ومقدم حجرة النوم، فانفجر فيه أهلى غاضبين وساخطين، وأهانوه بقسوة وسبوه وطردوه من بيتنا، وأنا أعترض على ما يفعلون ولا أستطيع منعه للأسف، وبعد خروجه واصلوا الحديث عنه وكيف أننى يجب أن أترك هذا الفقير.. الصرصار.. الذى لم يكن من «مقامنا» من البداية.. إلخ. واعترضت بشدة على هذا الهجوم على خطيبى، ودافعت عنه بأنه لم يخدعنا فى شىء من الأصل.. ولم يدعِ شيئًا غير صحيح عن نفسه أو عن أهله أو إمكانياته، وأنه كافح بإخلاص وفعل أقصى ما يستطيع ليفى بوعوده، لكن هيهات أن تغير أمى رأيها بعد أن حسمت أمرها، ورأت خطيبى هذا غير لائق بنا.

وفى اليوم التالى جاءنى خطيبى فى العمل خجلاً مما حدث، وأكد لى أنه يحبنى ويريدنى ولا يريد ما سوف يقدمه لى أهلى من أثاث أو جهاز، وأكد لى أنه سوف يرجع إلى بيتنا مرة أخرى مع أهله ـ رغم كل ما حدث ـ لإصلاح ذات البين وإنقاذ زواجنا، وأحسست بالإشفاق على خطيبى وحاولت قدر جهدى أن أطيب خاطره.

ورجع خطيبى بالفعل لزيارتنا مع أهله أملاً فى أن يخفف وجودهم معه حدة الهجوم عليه، لكنه لم يستطع الكلام من البداية،

ولم تعط أمي الفرصة له أو لأهله لكي يفتحوا أفواههم بكلمة صلح أو خير، وانطلقت أمي وإخوتي في الكلام والانفعال من اللحظة الأولى، وعايروا خطيبي وأهله بما أحضرت أسرتي من جهاز وأثاث، في حين أنه سيبدأ حياته معي وهو مدين بأقساط غرفة النوم، مما يعني أنهم سيواصلون الإنفاق على ابنتهم حتى وهي في بيت زوجها، وربما اضطروا أيضًا للإنفاق عليه.. إلى آخر هذا الكلام الجارح المهين. ولم يراعِ أحد حرج موقف خطيبي بين أهله أو مشاعرهم، وارتفع صوت أمي فاخترق أسماع الجيران.. وجاءوا للتهدئة والإصلاح وهم محرجون ومتألمون لما يجري، وخرج خطيبي وأهله من بيتنا كسيري النفسِ صامتين.

ولم تقصِّر أمي بعد ذلك في الإساءة لخطيبي لدى الجيران والأصدقاء وكل من عرفوه أو رأوه في بيتنا، ورغم ذلك فلقد جاءني خطيبي في العمل مرة أخرى ووعدني بأن يرجع مرة ثالثة للصلح بعد أن تهدأ النفوس قليلاً، لأنه لن يتخلى عني لمثل هذه التصرفات العابرة.. وحاول الصلح فعلاً، وحاولت بقدر جهدي إصلاح الأمر بينه وبين أهلي إلى أن يئست تمامًا، وأشفقت عليه من كثرة الفضائح، ففسخت الخطبة وفي قلبي سهم مسموم مما حدث. وتجنبني خطيبي السابق بعد ذلك تمامًا وغاب عن أنظاري، ثم علمت من زميلتي التي رشحتني له بعد شهرين من فسخ الخطبة أن صديقًا

له يعمل بالخارج قد رشحه للعمل معه.. فحصل على إجازة بدون مرتب وسافر إلى عمله الجديُد، ومضى عام طويل بحلوه ومره، ثم رجعت من عملى إلى البيت ذات يوم فوجدت أمى وإخوتى يتحدثون عن خطيب جديد يريد أن يأتى لكى يرانى، وكيف أنه من أسرة محترمة مثلنا وليست كأسرة خطيبى السابق وكيف أنه يحمل مؤهلاً عاليًا ويعمل عملاً مرموقًا وله أملاك ويحيا فى بحبوحة من العيش وليس كذلك «الجربان» الذى تخلصوا منه.. إلخ.. وجاء العريس بالفعل وزارنا فى البيت ورآنى وتحدث معى، ونلت القبول لديه.. أما أنا فلم أكرهه.. ولم أحبه.. وإنما تذكرت بشدة أننى قد جاوزت الثلاثين وأصبحت فى حاجة إلى الزواج قبل أن يفوتنى القطار. وتمت الخطبة، وبدأ خطيبى يتردد علينا مرة كل أسبوع فيأتى كل مرة محملاً بالهدايا.. ويستقبله أهلى بالحفاوة والتهليل والترحيب والتكريم، فأتعجب فى داخلى لفارق المعاملة بينه وبين خطيبى السابق، فأفخر الطعام يتم إعداده يوم مجيئه، وأحسن ما لدينا من أوان وفناجين وأكواب تخرج من مخزنها لاستخدامها يوم الزيارة السعيدة، وكلما أبديت ملاحظة على ذلك قالوا لى: إن لكل إنسان مقامه وما يستحقه من معاملة، وأن خطيبى الثانى «ابن ناس» ولا يجوز أن نظهر أمامه بأقل من هذا المظهر، واستمرت خطبتنا عامًا تمكن خلاله من إعداد كل شىء، وأعددنا نحن نصيبنا فى الأثاث بزيادة كبيرة عما كنا أعددناه لخطيبى الأول.

وتحدد يوم الزفاف، فقام خطيبى بحجز قاعة الأفراح، وأحضرنا نحن الأثاث من صالة الموبيليات إلى بيتنا استعدادًا للزفاف، وبعد أسبوع جاء خطيبى واتفقنا على نقل الأثاث إلى مسكن الزوجية، وتحدث أهلى بتردد عن قائمة الأثاث التى أعدوها وينبغى على خطيبى أن يوقعها، فانتفض واقفًا فى غضب شديد وكأن أهلى قد نطقوا كفرًا، ووقعت مشادة كلامية بينه وبينهم.. ولكن سبحان الله العظيم.. فقد انقلبت الآية تمامًا عما حدث مع خطيبى الأول، فكان صوته أعلى من أصواتهم جميعًا ولم يعطهم فرصة للكلام، وإنما انطلق كالمدفع الرشاش يجرح ويهين.. ويعاير أمى الموظفة بأصلها المتواضع الذى نسيته وبأبيها الذى كان بائعًا جوالاً فقيرًا لا يجد قوت يومه، ويعاير إخوتى بأنهم إذا كانوا فى مناصب مرموقة الآن فإنهم لم يكونوا كذلك طوال العمر، وإذا كانوا قد نسوا «أصلهم» البسيط فهو جدير بأن يذكرهم به.. إلخ، وأمى تجلس مذهولة لا تستطيع النطق.. وإخوتى الأربعة يجلسون صامتين واجمين.. وجاء الجيران مرة أخرى ولكن على صوت الخطيب هذه المرة وهو يعايرنا، وليس على صوت أمى كما حدث فى المرة السابقة، وحاولوا إصلاح الأمر بين خطيبى وأهلى بلا فائدة، وخرج خطيبى وهو يقسم على رؤوس الأشهاد أنه لن يتزوجنى بسبب أهلى.. ويقولها صريحة جارحة فى وجوههم بلا خجل ولا مراعاة لأى شىء، وانتهت الليلة الكئيبة بخروجه من بيتنا فى هذه الفضيحة العلنية القاسية.

ومرضت أمى لما حدث.. وبكيت أنا بحرقة، ليس على هذا الخطيب ولكن على حالى، وعلى ما جرى لى، وتذكرت خطيبى الأول الذى ظل متمسكًا بى حتى النهاية رغم كل ما تعرض له من إهانات فى بيتنا لم يكن يرد عليها سوى بالعتاب والكلمات الطيبة من نوع: سامحكم الله.. أو: أنتم تظلموننى.. أو: أهكذا يكون قدرى عندكم؟: وتذكرت أهله الطيبين الذين تحملوا الكلام الجارح عن ابنهم وعن فقره صامتين لا ينطقون سوى بكلمات العُتب والدعاء لأمى أن يسامحها الله على ما فعلت «بضيوفها» فى بيتنا إلخ..

ولم يرجع خطيبى الثانى بعد ذلك أبدًا رغم سعى إخوتى للصلح معه، وتم إلغاء حجز قاعة الأفراح وأعيد الأثاث إلى صالة المبيعات.. ورأيت أهلى كسيرى النفس حائرين بعد أن كانوا شامخين بأنوفهم ومتجبرين على خطيبى الأول.. وتذكرت «السهم المسموم» الذى انغرس فى صدرى حين أهانوه وجرحوا أهله بقسوة وهم ضيوف فى بيتنا، وانتهت خطبتى هذه بالفشل مرة أخرى ولكن لسبب مختلف تمامًا.

ولست أعترض على قضاء الله ولا قدره لكنى أسألك فقط: ماذا فعلت لكى يحدث لى كل ما حدث؟ وما هو ذنبى فيما جرى يا سيدى؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لا ذنب لك يا آنستى فيما حدث بين أهلك وخطيبيك السابقين إلا فى شىء واحد هو سلبيتك مع خطيبك الأول الذى لم تُحسِنى الدفاع عنه لدى أهلك ولم تتمسكى به بالقدر الكافى الذى يردهم عن تحقيره وإهانته وفسخ ارتباطك به.. نعم.. للأهل دور أساسى فى فسخ خطبتك، له لكنك كنت فى الثلاثين من عمرك حين انفجرت الأزمة، ولم تكونى فتاة مراهقة ولا غريرة، فكيف أخليتِ بينه وبين أهلك وتركته وحده فى حلبة مصارعة الوحوش.. يتعرض لإهاناتهم وتحقيرهم لأسباب لا حيلة له فيها ولم يتمنها لنفسه، وبلا عون منك سوى الإشفاق العاجز والنصيحة اليائسة له بأن يذهب إلى حال سبيله تجنبًا للفضائح!

لقد كنت تستطيعين التمسك به والغضب له.. وإقناع أهلك بما فى موقفهم منه من تجبر وإيلام لا يقرهما شرع ولا دين، ولو فعلت ذلك لما تردَّت الأمور بينهم وبينه إلى حد إهانته وتجريحه أمام أهله وهم ضيوف عليكم.. فالأهل لم يستهدفوا فى النهاية سوى صالحك وإن أخطأوا السبيل إليه، وما كانوا ليستطيعوا- لو تمسكت بما تريدين بقوة- سوى التسليم برغبتك والصبر عليه بضعة شهور أخرى لكى يتدبر نفقات الزفاف، فلقد صبروا عامًا جديدًا على الآخر حتى تحدد موعد الزواج، لكن أغلب الظن أنك كنت تسلمين فى داخلك ببعض ما ينكره أهلك على خطيبك الأول؛ لذلك فإنك لم تستطيعى

التمسك به حتى النهاية. . ورحل الشاب المكافح بعيدًا عن موطن الأحزان جريح القلب والكرامة.

ولقد شاءت إرادة الله أن يرد له اعتباره فى غيبته وبلا جهد منه، وثأر له ربه من أهلك الذين عيروه بما لا ذنب له فيه وهو رزقه المحدود، بمن لم يتورع عن تعييرهم هم أيضًا بما لا ذنب له فيه، وهو جذورهم العائلية. . وبمن لم يرع لهم حرمة، كما لم يرعوا هم حرمة أهل خطيبك الأول وحقهم كأضياف عليهم وهم يجرحون ابنهم أمامهم ويعيرونه بعجزه وفقره. ولكل شىء آفة من جنسه يا آنستى. ولكل أفعال الإنسان ثمن واجب السداد يدفعه صاغرًا إن آجلاً أو عاجلاً، فإن كانت خيرًا فخير، وإن كانت شرًا وتجبرًا واستعلاءً كريهًا على البشر فمن نفس الكأس المريرة قد يتجرع حتى ليشكو الظلم وهو الذى قد أصمّ أذنيه من قبل عن استعطاف من ظلمهم، و﴿**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ**﴾(1). . صدق الله العظيم. ولو أنصف الإنسان لما عير أحدًا بجذوره العائلية ولا برزقه أو نصيبه من متاع الدنيا، فما لأحد حيلة فى كل ذلك، ولأدرك الإنسان أن الشىء الوحيد الذى يستحق أن ينكره على الآخرين هو سوء خلقهم فقط لأنهم مسئولون عنه مسئولية شخصية، وفيما عدا ذلك فلا فضل لأحد فيما يملك أو يشغل من منصب. . أو يحمل من ألقاب عائلية.

---

(1) آية: ١٧

ومن عجب أن يجىء «الإنصاف الإلهى» لخطيبك الأول على يد خطيبك الثانى. . ليس فقط بأن أذاقهم مرارة الإحساس بالدونية والقهر أمام من يستعلى عليهم بغلظة ووقاحة، وإنما أيضًا بأن ألقى عليهم درسًا قاسيًا فى سوء تقديرهم لمعايير التفاضل بين الناس. . فعرفوا بعد فوات الأوان أن الفضلاء - أو من جرى العرف على تسميتهم «بأبناء الناس» - ليسوا هم من يملكون أكثر أو يشغلون وظائف أخطر. . أو يحملون درجات علمية أرقى أو ينتمون لعائلات أكبر، وإنما هم حقًا وصدقًا من «يستحيون من الله استحياءهم من ذوى الهيبة من قومهم» كما علمنا الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه. . ذلك أن «سمة الخير هى الدعة والحياء، وسمة الشر هى القحة والبذاء» كما يقول الفقيه الماوردى، وهم أيضًا أصحاب المروءة والنخوة والوفاء الذين «إذا رضوا لم يدخلهم الرضا فى باطل، وإذا غضبوا لم يخرجهم غضبهم عن حق، وإذا قدروا عفوا» كما يعلمنا أيضًا معلم البشرية. وهم يعرفون شرف الخصومة فلا يوغلون فى لدَدْ الخصام، ولا يسدون أبواب الرجوع للوئام، ويحفظون حرمات غيرهم، ويتعففون عن الفحش وإيلام الآخرين وتعييرهم بنقاط ضعفهم، ولا ينسون فضل الكبير ولا يدًا قدمت إليهم.

ولم يكن شىء من كل ذلك لدى خطيبك السابق صاحب الأملاك

والمركز المرموق والعيش الرغد والأسرة التى تليق بمصاهرتكم، وكان كل ذلك ـ أو معظمه ـ لدى خطيبك الأول الذى لم تخرجه إهانة أهلك له عن حيائه ورعايته للقيم العائلية والإنسانية. فعسى أن يستفيد أهلك بهذا الدرس القاسى فى تقييمهم السليم لمن يتقدمون إليك بعد ذلك، وعسى أن يحاول بعض علماء الاجتماع أن يفسروا لنا سر هذا الإحساس الطبقى الكريه المتبادل بين أشخاص من شرائح اجتماعية لا تكاد ترى الفروق بينها بالعين المجردة، ومع ذلك فهم يتمسكون بشعور الاستعلاء الطبقى بعضهم تجاه بعض.. فتمارس أسرة الفتاة استعلاءها الطبقى الغريب على الخطيب الأول المكافح، ويمارس الخطيب الثانى نفس هذا الإحساس الكريه تجاه أسرة الفتاة.. والجميع فى سلة واحدة هى الطبقة المتوسطة الدنيا التى تحتاج لإنهاء مشروع الزواج إلى كفاح سنوات، كما احتاج الخطيب الثانى صاحب الأملاك نفسه إلى عام كامل ليدبر نفقة إتمام الزواج.. فهل من مفسر لهذا الاعتزاز الطبقى الكريه؟..

على أية حال، فلقد أراد الله بك خيرًا يا آنستى أن وقعت هذه الواقعة بين خطيبك الثانى وأهلك قبل موعد زفافك بأسبوع واحد، فكشفت لك عن وجهه الحقيقى الذى لا يظهر إلا فى الغضب، فنجوتِ من تعاسة كانت تترصدك معه، وربما دفعت ثمنها غاليًا من سنوات عمرك.. فالإنسان الذى يقطع كل الخيوط فى لحظة واحدة

مع من كان على وفاق معهم قبل لحظات ثم يتفجر تجاههم بالفحش والسخيمة كقاذفات اللهب، إنسان لا يؤمن جانبه ولا يمكن أن تستقر سفينة الحياة معه إلا على حساب تنازلاتك المستمرة عن كرامتك وحقوقك، وعلى أساس استعدادك اللانهائى لاحتمال كل أنواع الأذى والإساءة منه، فضلاً عن تقلباته المزاجية الحادة.. فاشكرى ربك يا آنستى أن أنقذك من هذا المصير، وتعلقى دائمًا بالأمل فى عدالته ورحمته، وانتظرى نصيبك العادل من السعادة، وهو لا شك قادم فى ظروف أفضل بإذن الله بعد أن عرف أهلك بالثمن الغالى معايير التفاضل الأوْلى بالاحترام، وبشرط أن تخرجى عن سلبيتك وتدافعى عن سعادتك بقوة وإصرار حين تدعو الحاجة إلى ذلك.

(١٣)

سفينة القيادة

«حق الآباء فى قيادة سفينة الأسرة حق غير منكور، لكن القيادة الحكيمة حقًا هى التى تعرف حدود صلاحياتها ولا تتجاوزها إلى ما ينحرف بها إلى دائرة التحكم والقهر»

شجعنى على أن أكتب لك قصتى ـ وليست مشكلتى ـ ما قرأته فى رسالة «الشىء العزيز» عن تصلّب أحد الآباء وعدم مرونته مع أبنائه فى شىء قد ييسر عليهم حياتهم جميعًا. فأنا سيدة فى السادسة والثلاثين، نشأت فى أسرة فاضلة عائلها ضابط شرطة مطاع الأوامر فى العمل وفى البيت على السواء بلا فروق واضحة بين المكانين. وساعده على ذلك أن أمى سيدة طيبة حنون مغلوبة على أمرها دائمًا، فنشأنا ـ ونحن ثلاث بنات وولد ـ لا نستطيع مراجعة أبى فى أمر من أوامره أو مناقشته فيه، وكانت القاعدة دائمًا هى: أطع الأمر

أولاً ثم تذمر كيف شاء لك التذمر فى السر، فلن يجدى ذلك شيئًا! ولست أنكر على أبى أبوته لنا وحرصه على مصلحتنا، لكنى أنكر عليه فقط أنه لم يكن يحفل بمعارضتنا أو آرائنا، ورغباتنا فيما يتعلق بمستقبلنا وحياتنا الخاصة بعد أن كبرنا وحق لنا أن نتبادل معه الرأى وأن يلين لنا. وهكذا مضت بنا الحياة، وتنقلنا مع أبى من مكان إلى مكان إلى أن استقر بنا الحال فى القاهرة.. والتحقت بكلية عملية وتخرجت فيها، وعملت بإحدى الشركات، ثم تقدم لى شاب يعمل بقسم آخر من أقسام الشركة، ولا يكبرنى فى السن إلا ببضع سنوات، ويشهد له الجميع بأنه إنسان فاضل، فما أن رأيته حتى أحسست بإحساس غامر لم آلفه من قبل، وأنزل الله السكينة والمودة فى قلبى له، وتمنيته شريكًا وسندًا لى فى الحياة، واستخرت الله فى أمره، فاستقر فى يقينى أنه سيكون لى نعم الزوج ونعم الشريك، وترقبت بخوف وقلق رد فعل أبى تجاهه، فإذا به يثور ثورة عارمة ويقيم الدنيا ولا يقعدها ضده وضدى لمجرد أننى أبديت موافقتى عليه ورغبتى فيه، ولا لشىء إلا لأن هذا الشاب كان قد سبق له الزواج ولم يوفق فى زواجه الذى لم يكن مسئولاً عنه لتوتر العلاقة بينه وبين زوجته بسبب عدم إنجابها، مما أدى إلى استحالة العشرة بينهما من جانبها رغم محاولته الحفاظ على سفينة حياته الزوجية بكل السبل، فلم يحفل أبى بشىء من ذلك ولم يكلف نفسه أن يتحرى

أخلاقياته ودينه ونشأته العائلية، وإنما رفض الفكرة من أساسها لأنه مطلق، وهذا وحده سبب كاف لديه لرفضه بلا مناقشة.

وعلى خلاف عادتنا معه فى عدم مراجعته فى شيء، توسلت إليه أن يعطينى فرصتى فى السعادة كما أتصورها.. وأن يستجيب لدموعى ويضعه تحت الاختبار فقط، فيتحرى عنه وعن أخلاقياته ثم يبنى رأيه على أساس سليم، فلم يأبه لدموعى وتوسلاتى، وظل مُصِراً على رفض مناقشة الفكرة من أساسها، وهددنى بالويل والثبور إذا سمحت لهذا الشاب بالاتصال بى فى العمل.. وهدده أيضًا إذا لم يكف عن محاولة الاتصال بى، ولم تفلح محاولات أمى الطيبة المغلوبة على أمرها معه فى أن تزحزحه قيد أنملة عن رأيه، ولم يجسر إخوتى على معارضته مكتفين بالتعاطف العاجز معى، ولم يهدأ أبى إلا بعد أن سعى لنقلى من الشركة إلى عمل آخر حتى يسد على هذا الشاب باب الاتصال بى، ولم أجد فى النهاية مفراً من الاستسلام لمصيرى، فاعتذرت لهذا الشاب، وعدت لحياتى وفى قلبى مرارة تجاه أبى لا أستطيع مقاومتها، ولم أجد وسيلة للتنفيس عنها إلا فى رفض كل من تقدم لى بعدها وشعرت بحماس أبى له وموافقته عليه. وبعد عامين من الرفض المتواصل أجبرنى أبى إجبارًا على الزواج من «الشخص الرائع» الذى رأى فيه كل المواصفات المناسبة لى والجدير حقًّـا بمصاهرته، فهو شاب من أسرة ملائمة ويعمل عملاً مرموقًا

ومستريح ماديًّـا ولم يسبق له الزواج، وسد أبى علىّ كل أبواب الرفض، فسلمت أمرى لله، وتم عقد القران وأنا لا أستطيع تحديد مشاعرى تجاه ذلك الشخص الذى يتهلل أبى لرؤيته ويعامله بحفاوة بالغة، كأنما يقول لى: أين هذا من ذاك الذى كنت تريدين الارتباط به؟

وبعد فترة خطبة قصيرة تم الزواج بلا مشاكل، فكل شىء جاهز والإمكانيات متوافرة.. وأبى فخور بحسن اختياره لى ويلبى للشاب كل مطالبه، وبدأنا حياتنا الزوجية، فلم تمض شهور حتى تكشف لى «الشخص الرائع» الذى اختاره لى أبى بحكمته وخبرته الطويلة فى الحياة، عن إنسان همجى لا يرعى الله فىّ ويهيننى ويضربنى ويسقينى كؤوس الذل والعذاب، ويصب فوق رأسى إهاناته عند كل خلاف عابر.. ولا يخص بها أحدًا ـ للعجب ـ سوى أبى الذى يتيه به فخرًا ويراه أفضل الرجال فى العالم، وأنا أتحمل وأحاول إنقاذ سفينة حياتى حتى لا أواجه الفشل وأحمل لقب مطلقة، وشاء ربى لحكمة يعلمها ألا أنجب من زوجى هذا طوال ثلاث سنوات من الزواج، طفنا خلالها على الأطباء، وأثبتت كل التحاليل خلونا معًا من عوائق الإنجاب.

ثم توفى أبى ـ رحمه الله وغفر له ـ وتركنى أسيرة بين يدى ذلك الإنسان الهمجى الظالم، فلم أجد مبررًا لمواصلة الاحتمال، وتجرأت

بوفاة أبى على طلب الطلاق من زوجى، وأصررت عليه وقبلت كل شروطه المجحفة.. ورضيت بأن يسلبنى كل حقوقى لأتخلص من عذاب الجحيم الذى عشته معه ثلاث سنوات، وخرجت من تجربتى المريرة محطمة فاقدة الثقة بنفسى وبمن حولى جميعًا، وسلّمت أمرى لربى، وشغلت نفسى بعمل يفوق طاقتى واحتمالى لكى أستجدى النوم بالإرهاق الشديد فى العمل، ولم أندم لحظة واحدة على تخلصى من حياتى مع هذا الإنسان، وإن كنت قد بكيت بمرارة تحسرًا على سنوات العمر التى ضاعت فى المعاناة، وعلى صحتى التى تدهورت وجمالى الذى ذبل من الأرق والهموم، حتى كنت أنظر فى المرآة فأنكر نفسى وهيئتى، لكن أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد، فلم تمض بضعة شهور أخرى إلا وفوجئت بالشاب الذى أرادنى وأردته ورفضه أبى بجفاء وكبرياء قبل خمس سنوات يتقدم لى مرة أخرى، فقبلته على الفور ورحبت به أمى وإخوتى وعائلتى، وفتحت لى الدنيا ذراعيها بعد أن كانت تدفعنى عنها، فلم تمض أسابيع حتى كنا قد تزوجنا وضمنًا بيت جديد، وإذا بالشخص غير الملائم لى فى نظر أبى ـ سامحه الله ـ يتكشف لى عن إنسان طيب حنون يعرف ربه حق معرفته، ويرعى الله فىّ ويكرمنى ويحيطنى بعطفه وحنانه، فينسينى جراح تجربتى الأولى، ويزيل آثار المرارة من نفسى، وإذا بى أعرف لأول مرة أن الحياة الزوجية سكن ومودة ورحمة وعطف واحترام متبادل، وليست زجرًا ومكابرة ومعايرة

وسبابًا وضربًا وإهانة للزوجة وأبيها وأهلها، كما رأيتها مع زوجى السابق، وإذا بى أستعيد ثقتى بنفسى وبالناس وبالحياة، فأغادر عملى وأنا أتعجل العودة للبيت، بعد أن كنت فى زواجى السابق أتمنى لو أمضيت الليل أيضًا فى عملى، وإذا بربك يتم علينا نعمته فأنجب طفلاً وطفلة فى غاية الجمال والروعة هدية منه جل شأنه لكى تكتمل بهما سعادتنا وتتعمق روابطنا إلى الأبد إن شاء الله، وتلك جوائز الصابرين الراضين بأقدارهم.

لقد مضى على زواجنا الآن ست سنوات لم أشعر بمرورها، فى حين شعرت بأننى قد ساكنت ـ ولا أقول عاشرت ـ زوجى الأول ثلاثين سنة فى زواج لم يدم سوى ثلاث سنوات فقط، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يجمل عشرتنا حتى نهاية الرحلة، وأن يكون وجه زوجى هو آخر ما أراه من مشاهد الدنيا حين تحل النهاية المحتومة، وأن يوفقنا الله لإسعاد أبنائنا وتهيئة أفضل الظروف لهم، وإنى لأتساءل يا سيدى: لماذا يصر بعض الآباء على أن يستقلوا سفينة منفردة يقودونها وحدهم وتتبعها سفن الأبناء راغمة، حتى ولو كانت تسير إلى الهاوية؟.. أليس من الأفضل أن يلحق الأب أبناءه معه بركبه وسفينته ويكون الأمر شورى بينهم، خاصة بعد أن يبلغوا سن الرشد، لكيلا يدفع الأبناء ثمن أخطاء بعض الآباء من حياتهم وسعادتهم كما حدث معى، خاصة وأن كل ابن آدم خطاء ولو كان

أبا، وليس هناك من هو معصوم من الخطأ.. فلماذا لا يضع بعض الآباء نظرة الابن لمستقبله وحياته فى اعتبارهم وهم يقررون له ما يشاء من قرارات، وقد تكون للابن نظرة أرجح أو أقرب لحياته عن نظرة غيره لو وضعت فى الاعتبار؟

إننى أردد فى ختام رسالتى هذه ما قلته أنت فى تعليقك يا سيدى على رسالة «الشىء العزيز» من أنه «رحم الله امرأً أعان ولده على بره ولم يجعل من رحيله عن الحياة بشيرًا بانفراج أزمات أبنائه ومشاكلهم». وأقول: سامح الله أبى وغفر له.. وغفر لكل الآباء الذين لا يتعاونون ولا يتفاهمون مع أبنائهم على اختيار ما يرونه فى صالحهم بالمودة والتفاهم والشورى وليس بالقهر والتسلط والإجبار، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

قد تصحح الحياة أحيانًا بعض أخطائها المؤلمة، فتجمع بين الإنسان وبين من ضلّ الطريق إليهم، وما زال فى العمر والقلب بقية لتذوق جمال الحياة، فتصبح بذلك فترة التيه والمعاناة وكأنما كانت تدريبًا قاسيًا على اكتشاف من يصلحون له ويصلح لهم، وعلى التفرقة بين ما يستحق الاهتمام به من أهداف الحياة الحقيقية الجديرة بالاهتمام وبين ما لايستحق السعى إليه.. أو بكاء الندم عليه إذا لم يدركه.

ولأنه ليست هناك معاناة إنسانية بلاجدوى، فإن من عرف مرارة

الشقاء فى حياة سابقة يزداد تقديرًا لأهمية السعادة الحقيقية حين تتاح له أسبابها.

والسعداء من البشر حقًّا يا سيدتى هم من لا يطول إبحارهم فى بحر الشقاء قبل أن تعيدهم أمواج الحياة سريعًا إلى شاطئ الأمان. وقد كان من حظك فى الحياة ألا تطول غربتك طويلاً عمّن كان مقدرًا لك ألا تسعدى إلا معه منذ البداية، فعلمت بالتجربة المريرة أن الدنيا كلها لا تسع متباغضين، وأن شبرًا من الأرض يسع متحابين كما تقول الحكمة العربية القديمة، وعرفت أيضًا بدرس التجربة أن سكينة القلب إلى من يحب ويهوى أهم من كثير من أهداف الحياة غير الجديرة بالعناء.

أما التعساء حقًّا فهم من لا تترفق بهم الحياة ولا تتيح لهم فرصة تصحيح الأخطاء أبدًا إلا بعد فوات الأوان، وإلا بعد أن يصبح تصحيح الخطأ نفسه خطأ أبلغ ضررًا بالمحيطين به من استمراره وتحمل عنائه، أو بعد أن يصبح هذا التصحيح نفسه جناية تجنى على سعادة الأعزاء، أو تهدد أمانهم، أو يصبح تغييرًا هائلاً يعجزون عنه نفسيًا أو اجتماعيًّا، فيواصلون الطريق راغمين ومحتسبين، ومؤملين ألا تنساهم رحمة الله إلى ما لا نهاية.

فهنيئًا لك ما سمحت لك به الحياة من فرصة للمراجعة وتصحيح الأخطاء، وطوبى لمن ينتظرون أن تحل بهم رحمة السماء حين يشاء

الله أرحم الراحمين. أما تساؤلك عن بعض الآباء الذين يصرون على أن ينفردوا وحدهم بسفينة قيادة تتبعها راغمة سفن الأبناء ولو مضت بهم إلى الهاوية، فتساؤل مرير وحكيم فى نفس الوقت، ولسنا فى حاجة لأن نستعير من أدبيات الغرب الحديثة ما نثبت به حق الفتاة فى أن تختار لنفسها من تشاركه رحلة الحياة، مسترشدة فى ذلك بحكمة الأب وخبرة الأهل الثمينة بالحياة.

فالمؤلم حقًّا هو أن كثيرًا من المعاناة كان من الممكن أن يتجنبه الأعزاء لو التزم البعض بقيم دينهم الصحيحة.. والأكثر حرصًا على سعادة الإنسان وحريته من بعض النظريات الحديثة.

فالشرع يمنع إكراه المرأة - بكرًا كانت أم ثيبًا - على الزواج، ويمنع إجبارها على من لا رغبة لها فيه، ويجعل العقد عليها قبل استئذانها وموافقتها الحرة لا الاضطرارية غير صحيح عند جمهور الفقهاء الذين لم يسترشدوا فى ذلك بكتب سيمون دى بوفوار ولا ستاندال عن الحب والزواج، وإنما بتعاليم دينهم القويم وبهدى المربى الأعظم صلوات الله وسلامه عليه الذى جاءته فتاة وقالت له: إن أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسته «أى ليرفع بى من قدره وشأنه»، فجعل الرسول الكريم الأمر إليها، إن شاءت أقرّت أباها على ما فعل وإن شاءت نقضته، لأنه لا يصح زواجها على غير إرادتها، فقالت

له: قد أجزت صنع أبى، ولكن أردت أن أُعلِم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء.

أى ليس للآباء أن يرغموا بناتهم على من لا يردن، فكيف بمن يرغم ابنته الشابة الرشيدة على زواج من لا تريد ولا ترغب، بعد ١٤ قرنًا من هذا التوجيه؟

يا سيدتى.. إن حق الآباء فى قيادة سفينة الأسرة وحماية ركابها من مخاطر الإبحار وسط جنادل الحياة وعثراتها حق غير منكور، لكن القيادة الحكيمة حقًّا هى التى تعرف حدود صلاحياتها المشروعة ولا تتجاوزها إلى ما ينحرف بها إلى دائرة التحكم والقهر والإجبار، كما أنها أيضًا القيادة التى لا تتجاهل آراء «الرعية» ولا رغباتهم أو حقهم العادل فى الاختيار لأنفسهم حين تتباين الآراء وتختلف.. وليس للآباء على أبنائهم الراشدين فى النهاية إلا حق النصح والإرشاد بخبرتهم فى الحياة، ورغبتهم التى لا يرقى إليها شك فى خير أبنائهم وصلاحهم.. والأبناء الأسوياء الفضلاء هم الذين لا يتجاهلون أيضًا حق الآباء الدينى والإنسانى والعاطفى عليهم فى ألا يشقوا عليهم عصا الطاعة.. وألا يتجاهلوا حكمتهم وخبرتهم.. وألا يكفوا عن محاولة نيل رضاهم وتأييدهم ومباركتهم لخططهم فى الحياة حتى ولو لم تحظ برضا الآباء عليها.. ولقد فات والدك كل ذلك، فقاد سفينتك إلى هاوية الزواج التعيس والمعاناة،

لكن إرادة الله كانت فوق إرادة البشر. . فعدت إلى مرفأك الصحيح وغردت طيور الحب فى عشك السعيد من جديد. . فانسى لأبيك ما فعل بحياتك. . ولا تحملى له فى نفسك ما تحملين له الآن من مرارة راسخة فى الأعماق. . فهو لم يرد لك - رغم كل شيء - إلا سعادتك كما تصورها، وما أكثر ما تخيب حسابات الإنسان لنفسه ولأعزائه، ولو تحرى كل أسباب الرشاد، ولكن حسن النية خير شفيع للصفح والنسيان فى النهاية. واستغفارك لأبيك قربى عادلة تتقربين بها إلى الله سبحانه وتعالى ليحفظ عليك سعادتك ويجنبك عثرات الطريق.

أما خير ما تفعلين بحياتك وأطفالك فهو ألا تكررى خطأ أبيك فى حقك معهم، وأن تقدمى لهم خير ما يملك أبوان أن يقدماه لأطفالهما، وهو طفولة سعيدة يتنفسون فيها أنفاس الحب والرحمة والتعاطف بين آبائهم، فيخرجون إلى الحياة قادرين على السعادة. . وراغبين فى تكرار «مثال» آبائهم وأمهاتهم فى الحياة السوية الآمنة، المعطرة بعطر العطف والحب للبشر ولكل شيء جميل فى الحياة بإذن الله. وشكرًا لك على رسالتك الجميلة.


قطب

(١٤)
أصوات الحياة

«إن الذين يعيشون وفى أذهانهم أنه ليس هناك غد أفضل، فإنهم لا يجدون هذا الغد أبدًا حين يصلون إليه، لأنهم لم يؤمنوا به منذ البداية ولم يتمسكوا بالأمل فيه»

منذ عشر سنوات وأنا أفكر فى الكتابة إليك.. وفى كل مرة يشغلنى شاغل هام عن ذلك، أو أؤجل أنا قرار الكتابة ترقبًا لتطور هام فى قصتى أتمنى أن أبلغك به، وأخيرًا آن لى أن أكتب وأقول لك: إننى شاب فى الثالثة والثلاثين من عمرى، نشأت فى أسرة بسيطة يبذل عائلها الموظف الصغير بإحدى المصالح الحكومية كل ما فى وسعه لتلبية احتياجاتها.. وكنت أول أبناء هذه الأسرة، فتركزت علىّ الآمال فى أن أحقق لنفسى شأنًا كبيرًا فى التعليم والحياة، وكنت متفوقًا فى دراستى بالفعل، لكنى استنفدت خلال عام الثانوية العامة معظم طاقتى فى الاستذكار طوال شهور السنة الدراسية، فما أن جاء

موعد الامتحان حتى كنت قد أصبت بالإجهاد الشديد ولم أستطع تحقيق حلم حياتى فى الحصول على مجموع يؤهلنى لكلية الطب البشرى، ورغم سعادة أسرتى بالمجموع الكبير نسبيًّا الذى حققته ورشحنى للالتحاق بكلية الطب البيطرى، إلا أننى كنت حزينًا لفشلى فى تحقيق أمنيتى القديمة. والتحقت بكلية الطب البيطرى على أمل واحد هو أن أستطيع بعد التخرج فيها الدراسة بإحدى كليات الطب والعمل كطبيب بشرى فيما بعد، وبدأت دراستى باجتهاد شديد واضعًا هدفى الأساسى نصب عينى، وتفوقت كعادتى فى الدراسة، لكنى بدأت خلال العام الثانى من دراستى الجامعية أحس بطنين خفيف - لكنه متصل - فى أذنى، وأحاول علاجه بالأسبرين والمسكنات، وواصلت حياتى ودراستى، ومن حين لآخر يشتد الطنين الخفيف فى أذنى ويستمر بالساعات.. شىء أشبه بخروشة الراديو القديم أو بخشخشة احتكاك الورق، لكنه يوش فى أذنى طوال الوقت.. وينهكنى. وبعد أن كان الطنين يزورنى كل بضع ساعات بدأ يلازمنى طوال اليوم ولا أستريح منه إلا إذا استسلمت للنوم، ولا أفتح عينى فى الصباح إلا عليه إنه عذاب رهيب لا تتخيل وطأته، وأدعو الله أن يحميكم ويحمى الجميع منه، وقد راح هذا الطنين يتصاعد ويرتفع فى أذنى من شهر إلى شهر كأنك ترفع صوت الراديو القديم الذى لا تصدر عنه سوى الخروشة المستمرة، وأنا أدور بين الأطباء بلا فائدة، وكل منهم يشخص مرضى تشخيصًا مختلفًا..

وبعد رحلة طويلة من العناء أجمعوا على أن الأذن الخارجية والأذن الوسطى عندى سليمتان، وبالتالى فإنها ربما تكون حالة نفسية وستختفى فى الوقت المناسب. وانتظرت اختفاءها فلم تختف، وإنما استمرت وتزايدت، وبدلاً من أن أستريح من هذا الطنين القاتل المستمر ليل نهار، بدأت أشعر بأننى أفقد سمعى تدريجيًا وأشعر بثقل غامض فى رأسى، ثم فقدت قدرتى على تدوين المحاضرات أو الدروس العملية فى كليتى، فراح أصدقائى فى الكلية يكتبونها لى نيابة عنى، وبفضل مساعدتهم لى وانتظامى فى الحضور رغم معاناتى نجحت فى عامى الجامعى الثانى وحصلت على أعلى التقديرات، ولأول مرة فإنى لم أسعد بتفوقى فى الدراسة رغم سعادة أسرتى به، فلقد فقدت السمع نهائيًا مع ظهور النتيجة وحل الصمت القاتل الثقيل محل الطنين الدائم المعذب فى أذنى، وبقى الإحساس بالصداع والثقل فى رأسى.. ثم ساءت حالتى أكثر من ذلك، فتأثر اتزان حركتى ولم أعد قادرًا على المشى بطريقة طبيعية.. وضعف ذراعاى وأصابع يدى فعجزت عن الإمساك بالقلم، وتأثر نطقى للكلمات والأصوات، وبعد عام طويل من العلاج بقسم السمعيات بطب عين شمس، كشف فحص المخ بالكمبيوتر عن وجود ورمين فى مراكز السمع بالمخ، ونصحنى الأطباء بضرورة السفر إلى لندن لاستئصالهما فى أقرب وقت قبل أن يتفاقم الخطر، وصدمت حين أدركت ذلك.. وتساءلت: وأنَّى لشاب بسيط مثلى أن يستطيع ذلك؟ لكن ما ظننته

مستحيلاً قد تحقق بالفعل، وخلال وقت قصير. فقد سعى أبى الموظف الحكومى البسيط وساعده الجميع فى طلب علاجى على نفقة وزارة الصحة بالخارج، وصدر القرار وسافرت بالفعل إلى لندن وأجرى لى جراح بريطانى للمخ والأعصاب جراحة استئصال الورمين، وبعد نجاح الجراحة قال لى الطبيب الإنجليزى بواقعيته المجردة: إنى يجب ألا أفكر فى أن أصبح طبيبًا بشريـًّـا ذات يوم أو حتى طبيبًا بيطريـًّـا، وأنه من الأفضل لى أن أتوقف عن الدراسة بكلية الطب وأن أمارس عملاً بسيطًا لا يحتاج منى إلى مجهود ذهنى أو عضلى.

ورغم نجاح الجراحة فإننى لم أتخلص من الآلام والمضاعفات، كما أنى لم أشف من ضعف اتزان الحركة وشلل عضلات الوجه وضعف الذراعين وأصابع اليد. وقيل لى: إن شفائى من كل هذه الآثار رهين بانتظامى فى العلاج الطبيعى وصبرى عليه، ورجعت إلى مصر وأنا أفكر فيما قاله لى الطبيب البريطانى وأسأل نفسى: هل أيأس حقـًّـا من تحقيق حلمى القديم فى التفوق والعمل كطبيب بشرى ذات يوم؟ وفى حيرتى وآلامى قررت فجأة أن أنسى كل ما قاله لى الطبيب الإنجليزى وأن أتصرف وأخطط لحياتى كما كنت أخطط لها من قبل تاركًا لله سبحانه وتعالى أن يختار لى بحكمته التى تخفى عن الأفهام ما يشاءه من مصير. وبدأت رحلة العلاج الطبيعى

الطويلة، ولا أستطيع - وحتى نهاية العمر - أن أنسى كم كان أبى وأمى وإخوتى وأصدقائى كرماء وعظماء فى صبرهم علىّ إلى ما لا نهاية، فطوال عام كامل كانت أمى الطيبة ترافقنى كل يوم إلى العلاج الطبيعى وتقضى الوقت الذى يستغرقه العلاج بجوارى تشجعنى على أداء المطلوب منى، ولا أرى منها طوال الوقت سوى الابتسامة الجميلة الدائمة التى تخفف عنى ما أحسه من عناء، أما أبى الذى لم يكن يمضى يوم قبل ذلك دون أن يتشكى فيه من أعراض مرض مزمن قديم يعانى منه، فلقد كف فجأة عن الشكوى من مرضه تمامًا ولم أر منه بعد ذلك إلا التهوين والرغبة فى أن يخرجنى من دائرة اليأس، كأنما قد شفى بقوة سحرية من مرضه مع أنه لم يشف منه أبدًا!

فهل كنت يا سيدى أستطيع أن أكون أقل صبرًا أو شجاعة من هذين الأبوين العظيمين؟ لقد عدت بعد شهور قليلة إلى الدراسة وحضور المحاضرات وأنا أمشى بطريقة غير طبيعية وغير متزنة وتُلفِت أنظار الآخرين، ورجعت إليها وأنا لا أستمع أى شيء يدور حولِى، لكنى أرى والحمد لله.. وأفهم.. وأستطيع أن أتكلم أيضًا حتى ولو كان النطق مختلفًا بعض الشيء، فراح أصدقائى وزملائى العظام يتعاملون معى بالكتابة والإشارة وينقلون لى المحاضرات ويشرحون لى ما لا أفهمه منها، ولا تسلنى كيف فعلوا ذلك وأنا لا

أسمعهم، فلقد كانوا يستخدمون معى كل الوسائل البصرية والتحريرية، بل وخفة الدم المصرية أيضًا فى إبلاغى بما يريدون، فإذا بى أنجح فى الامتحان وأحصل على أعلى التقديرات، وأتخرج فى كليتى وسط سعادة الجميع وفخرهم بى من أبى وأمى وإخوتى إلى أصدقائى وزملائى، حتى من لم يوفقهم الحظ للحصول على تقديرات عالية مماثلة فى البكالوريوس. وبعد تخرجى عملت بمساعدة أبى فى أحد معاهد البحوث المتخصصة فى دراستى كباحث، وعملت أيضًا أمينًا للمكتبة به، وبعد شهور قليلة أصبحت صديقًا لكل من يعملون بالمعهد أو يترددون عليه، أحبهم ويحبوننى، وأساعدهم عن طريق عملى فى المكتبة ومعمل التحليل فيما يطلبون من بيانات ومعلومات، ويساعدوننى فيما أعجز عنه بسبب ظروفى الخاصة، ولست أريد أن أطيل عليك أكثر من ذلك؛ لهذا فإنى سأعبر ثمانى سنوات من الزمن تلت تخرجى فى كليتى لأطلعك على وضعى فى الحياة الآن، فأقول لك: إن هدايا السماء التى تسميها أنت بجوائز الصابرين والراضين بأقدارهم قد هطلت علىّ خلال السنوات الماضية بلا حساب، فوفقنى الله سبحانه وتعالى إلى إنسانة تستهدى بقيم الدين علمًا وسلوكًا وخلقًا، تفهمت وضعى من البداية فكانت خير عون لى على ظروفى وحياتى، كما حصلت على الماجستير فى تخصصى بتقدير مشرف للغاية والحمد لله، ووفقت أيضًا للعمل كأخصائى للتحاليل الطبية فى مستشفى خاص بمساعدة زملائى لمدة ٥

سنوات كاملة، أما أهم الهدايا وأعظمها فقد هبطت علىّ من السماء حين وهبنى الله ابنًا جميلاً شاءت إرادته سبحانه وتعالى أن يكون شديد التماثل معى فى الشكل والهيئة، فذكرنى بطفولتى التى كدت أنساها فى محنة المرض، وأضاء حياتى وحياة أبى وأمى. ورغم مخاوفى البديهية عليه من أن يواجه ذات يوم ما تعرضت أنا له من مرض، إلا أننى أنفض من رأسى هذه المخاوف حين تزورنى من حين لآخر وأدعو الله الكريم أن يحفظه لى ويجنبه كل ما عانيت منه فى حياتى، إنه سميع مجيب الدعاء. كما حصلت أيضًا ـ بفضل الله وتوفيقه، وبفضل إصرارى على تحقيق الحلم القديم ـ على درجة الدكتوراه فى تخصصى، ونلت من شهور ـ بتوفيق آخر من الله ـ درجة مدرس باحث بالمعهد الذى أعمل به، وتقدمت لوزارة الصحة لاعتمادى كأخصائى للتحاليل الطبية، فاعتمدتنى على الفور لممارسة هذا التخصص الذى يعتبر من أرقى التخصصات الطبية فى العالم، وأصبح من حقى أن أدير معملاً للتحاليل حين أريد ذلك، كما وفقنى الله كذلك لبدء أول خطوة على طريق إنشاء مركز طبى خيرى صغير لخدمة البسطاء من الناس، والحمد لله كثيرًا على كل شىء، فإنى أكسب الكثير من عملى ولا أدخر حتى الآن مليمًا واحدًا للمستقبل، لأنى أنفق كل ما يزيد عن متطلباتى واحتياجات أسرتى فى أوجه الخير شكرًا لله على نعمته وعرفانًا منى بفضله ومنته على. صحيح أننى يجب أن أدخر بعض دخلى لأؤمن به مستقبل ابنى.. لكنى

لست قلقًا من هذه الناحية، فلسوف يتسع المجال أمامى قريبًا، وسوف أستطيع أن أؤمن مستقبل ابنى العزيز بغير أن أتوقف عن مد يد المساعدة للآخرين فى المستقبل القريب بإذن الله.. وإذا كانت المخاوف تعاودنى من حين لآخر من احتمال أن يعاودنى المرض.. أو يرجع الورم مرة أخرى ويدفعنى ذلك للجوء إلى زملائى الأطباء الذين أتعامل معهم، ولأن أجرى فحوصى فى أكثر من معمل ولا أطمئن إلى سلامتها إلا إذا توافقت كل الفحوص، إذا كنت أفعل هذا فعلاً فليس من الوساوس أو القلق المرضى الذى لا داعى له، وإنما فقط لأن عملى فى مجال التحاليل الطبية يطلعنى على الكثير من حقائق المرض وأسراره، ولأن من يعرف أكثر يخاف أكثر كما قلت أنت ذات مرة فى أحد ردودك. والاحتياط واجب فعلاً لكنه لا ينبغى أن يفسد علينا استمتاعنا بالحياة، ولا أن يعمى أبصارنا عما أنعم الله به من نعم جليلة وكثيرة، وإنى حين أنظر الآن إلى نفسى بعد ١٠ سنوات كاملة من دخولى عالم الصمت الذى غابت عنى فيه أصوات الحياة، وأرى بعين الذكرى والخيال نفسى وأنا طالب صغير بكلية الطب البيطرى يتملكه الحزن والأسى لأن مرضه المفاجئ سوف يحول بينه وبين تحقيق حلمه القديم فى أن يصبح طبيبًا بشريًّا ذات يوم، ثم أنظر إلى نفسى الآن وقد تحقق لى أكثر مما تمنيته لنفسى ومما حلمت به فى العلم والعمل والحياة الخاصة، لأقول لك وبكل الصدق: إننى أشك كثيرًا فى أننى كنت سأنجح فى تحقيق ما حققت

لحياتى الآن من توفيق ونجاح لو لم تمتحنى الأقدار بمحنة المرض والإعاقة التى استنفرت فىّ إرادة تحدى المرض والظروف، وأظهرت قدراتى الحقيقية على العمل والتفوق والإجادة لأثبت لنفسى قدرتى على أن أكون ناجحًا فى الحياة بالرغم مما أصابنى من مرض.. وإذا كان لى مطلب أو رجاء عندك فى النهاية فهو أن تواصل جهدك وتبنيك لمشاكل إخوانى المعاقين وأصحاب الظروف الخاصة فى مصر، وهم لا يقلون أبدًا عن ستة ملايين إنسان، ويزيد عددهم على عدد سكان بعض الدول الصغيرة، مناشدًا إياك أن تواصل المطالبة بحقوقهم وبإنصاف المجتمع لهم، وأن تقول لإخوانى من الأصحاء إن كل مشاكل الحياة التافهة لا تساوى شيئًا إلى جانب مشاكل الحياة برفقة إعاقة دائمة ومزمنة، لكى يرضوا عن حياتهم وظروفهم ويلتمسوا العذر والتقدير لغيرهم من أصحاب الظروف الخاصة..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

حين نشرت الكاتبة الإنجليزية ذائعة الصيت أجاثا كريستى مذكراتها منذ حوالى ثلاثين عامًا، قالت فى مقدمتها: إنها لم تلتزم فيها بترتيب زمنى لوقائع حياتها، وإنما أرادت أن «تتذكر فيها ما يسعدها تذكره، وتتجاهل ما يؤلمها أن تستعيده أو تتذكره»، وقالت تأكيدًا لذلك: «لقد تذكرت ما أردت أن أتذكره، ونسيت ما أردت أن أنساه!».. لهذا فقد

قال أحد النقاد الإنجليز عن مذكراتها: «إنها ترنيمة جميلة لبهجة الحياة أكثر منها مذكرات شخصية»! ولقد تذكرت عبارة هذا الناقد الإنجليزى وأنا أقرأ رسالتك الجميلة هذه رغم اختلاف الوقائع والظروف، فرسالتك هذه يا صديقى التى تذكرت أنت فيها كل ما يؤلمك تذكره هى رغم ذلك ترنيمة أخرى لبهجة الحياة.. والأمل.. والرضا بكل ما تحمله لنا المقادير، ودعوة مخلصة لأن يكتشف كل إنسان «الأشياء الجميلة» التى يستطيع أن يحققها لنفسه وحياته إذا استمسك بالأمل والثقة فى النفس وفى عدالة ما يسعى إلى تحقيقه من أهداف الحياة. فلاشك أنه من دلائل العجز أن يكتفى الإنسان بالرثاء لنفسه واجترار آلامه وأحزانه، ولوم الظروف القاسية التى حالت بينه وبين تحقيق بعض ما كان يتمناه لنفسه، كما أنه من دلائل العجز أيضًا أن «يتحجر» الإنسان أمام بعض أمنياته ورغباته التى حالت الظروف بينه وبينها، ويتوهم أنه لن تكون له حياة بغيرها.. فأهداف الحياة كلها يمكن تلخيصها فى كلمات قليلة هى: السعادة فى الحياة الخاصة.. والتوفيق فى الحياة العملية.. مهما كان نوع العمل الذى يمارسه الإنسان، ومهما كان متوافقًا مع أحلامه الوردية القديمة لنفسه أو متعارضًا معها. فالعمل وسيلة لتحقيق الذات وتأمين متطلبات الحياة، وليس هدفًا فى حد ذاته لا تتحقق السعادة للإنسان إلا بممارسة بعض أنواعه وحدها دون غيرها. وأهداف الحياة هى دائمًا كالميادين الدائرية التى تصب فيها طرق عديدة قادمة من اتجاهات مختلفة، ويستطيع

الإنسان دائمًا إذا وجد أحد هذه الطرق مسدودًا أمامه بالعقبات أن يسعى إلى نفس الهدف عبر طريق ثان أو ثالث أو رابع، يصل به فى النهاية إلى الغاية المطلوبة أو قريبًا منها، فإذا أدى الإنسان واجبه تجاه نفسه ولم يقصر فى بذل الجهد والعرق لبلوغ أهدافه، ثم لم تسمح له الحياة ببلوغ نفس النقطة التى بلغها غيره.. أو طالما تمناها لنفسه، فليست كارثة ولا هى نهاية الحياة أو قمة الشقاء، فلقد اختارت له السماء غير ما اختار لنفسه، ويستطيع هو أن يتعزى عما عجز عنه بما أتيح له من أسباب التعويض العديدة التى تضىء حياته كالتوفيق والسعادة فى الحياة الخاصة وحب الآخرين له وتمتعه بنعمة الصحة والأهل والصداقة، وبالرضا عما أتاحته له الحياة من أسباب أخرى، وكثيرًا ما قادنا خطانا إلى طرق مسدودة شقينا بعجزنا عن اجتياز عقباتها، ثم كشفت لنا تجربة الحياة بعد ذلك أن ما اتخذناه من طرق بديلة مرغمين قد قادتنا إلى غايات أهم وأسمى مما تحرقنا شوقًا لأن نصل إليه وبكينا طويلاً حين حرمنا منه، ولعل هذا ما عنيته أنت حين قلت فى رسالتك إنك تشك كثيرًا فى أنك كنت تستطيع أن تحقق لنفسك بعض ما حققته لو لم تعترض حياتك محنة الألم والإعاقة وتنحرف بك عن الطريق الذى تمنيته فى البداية لبلوغ أهدافك فى الحياة، ﴿**وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾[1] صدق الله العظيم..

(١) سورة البقرة آية ٢١٦.

ولأننا لا نعلم؛ فإننا قد نحزن لأنه قد فاتنا بعض ما تمنيناه لأنفسنا، ولأنه سبحانه وتعالى يعلم، فقد ينتظرنا الخير الكثير فى نهاية الطريق إذا رجعنا إلى الرضا.. واستنفرنا قوانا وقدراتنا وسعينا إلى أهداف بديلة أو قريبة من أهدافنا السابقة، وبذلنا الجهد والعرق وكففنا عن اليأس والعجز ولوم الظروف، وهذا ما فعلته أنت يا صديقى فى حياتك، ويحق لك أن تفخر به وتعتز. وإذا كنت قد سعدت وأنا أقرأ رسالتك بكل ما حققته لنفسك بإرادتك وكفاحك النبيل من تقدم فى الحياة العلمية والعملية، فلقد سعدت أكثر وأكثر بما أكرمتك به الحياة من توفيق وسعادة فى الحياة الخاصة.. فهذا هو التوفيق العظيم حقًّا يا صديقى الذى تستحقه، وبغيره لم يكن لأى توفيق آخر أن يعوضك عن معاناتك، فلاشك أنك تَستَحق هذه الإنسانة المتدينة التى كانت عونًا لك على الظروف المؤلمة، كما تستحق أيضًا هبة السماء الكريمة لك فى هذا الطفل الجميل الذى يذكرك بطفولتك، وأرجو الله أن يحفظه لك ويتم عليك نعمته، ولا شك كذلك فى أنك إنسان مفطور على حب الحياة والبشر، وإلا ما أحبتك الحياة وأحبك البشر من أصدقاء وزملاء فى الكلية وفى العمل.. فكاره الإنسان مهما تخفى بأحقاده أو خدع البعض مؤقتًا لا يمكن أبدًا أن يكسب حب الآخرين له أو يستمتع بنعمة الصداقة الحقيقية ودفئها. ولقد كان الدعم النفسى الذى حظيت به من أبويك العظيمين ومن

أصدقائك وزملائك من أهم أسباب تقدمك فى طريق الشفاء، أما أهم أسباب تقدمك على طريق تحقيق أهدافك فى الحياة فلقد كان فى رأيى هو تمسكك الدائم بالأمل فى غد أفضل، وإيمانك العميق بهذا الغد.. فالذين يعيشون حياتهم - كما يقول كاتب أمريكى معاصر - وفى أذهانهم أنه لن يكون هناك غد أفضل.. فإنهم لا يجدون هذا الغد أبدًا حين يصلون إليه، لأنهم لم يؤمنوا به من البداية ولم يتمسكوا بالأمل فيه،أما أنت يا صديقى فلقد وجدته حين وصلت إليه لأنك لم تفقد الرضا بظروفك ولا الإيمان بنفسك وبحقك فى هذا الغد الأفضل ولا الأمل فيه.. وشكرًا لك على هذه الترنيمة الجميلة فى حب الحياة التى تتردد أصواتها البهيجة فى قلبك بدلاً من أذنيك، وشكرًا لك لإحساسك النبيل بمشاكل المعاقين.. وعهدى معك ألا أكف يومًا عن مطالبة المجتمع بإنصافهم ورعاية حقوقهم عليه.



(١٥)
القنبلة الرهيبة

«كل خروج على مألوف الحياة وما تراضى عليه البشر من أعراف وتَقاليد ونظم اجتماعية مستقرة، هو فى النهاية مغامرة محفوفة بالمخاطر، ولابد أن تكون تَبعاتها ثقيلة على من يقدم عليها!»

هذه هى المرة الأولى التى أكتب فيها إلى بريد الجمعة، وما كنت أظن أنه ستواتينى الشجاعة ذات يوم لأن أكتب إليه. وقد دفعنى إلى ذلك ما قرأته فى رسالة العمر الضائع للأم التى تشكو من ابنها الذى أصر على أن يقيم حفل زفافه وهى ما زالت فى مرحلة النقاهة إثر إجراء جراحة خطيرة لها. فأنا أم جامعية لثلاث بنات رائعات علمًا وخلقًا وجمالاً، وزوجة لرجل ناجح متدين، ونحن من عائلة محترمة، بمعنى أن كل أفرادها متعلمون ونعيش فى مستوى فوق المتوسط من الناحية المادية، وقد تقدم لإحدى بناتى شاب ممتاز فى

كل شيء، إلا أن أسرته تقل عن أسرتنا فى المستوى المادى والاجتماعى. ولأننى أم لبنات فإنى لم أتوقف أمام ذلك كثيرًا، وأتممنا الخطبة، ثم عقدنا القران على أن يتم الزفاف بعد عام آخر.

ومضت الأمور على نحو جميل، وأهل العريس فى منتهى الأدب معنا، بل والخجل أيضًا من الفارق الاجتماعى والاقتصادى بين أسرتينا، حتى أننا كنا نجتهد أنا وبناتى وزوجى لإزالة حرجهم وارتباكهم حين ندعوهم للعشاء أو الغداء..

ثم حدث فجأة ما قلب حياتى رأسًا على عقب، فلقد ألقت علىَّ ابنتى قنبلة رهيبة حين اعترفت لى بأنها قد أخطأت مع خطيبها وفقدت عذريتها، ولا تدرى ماذا تفعل، وتستنجد بى لكى أتصرف، ومهما كتبت لك عن حالتى حين عرفت ذلك فلن تستطيع تخيلها.. فقد أصبحت فجأة كالمجنونة، وتزاحمت الأفكار السوداء على رأسى فحرمتنى من النوم نهائيًّا. صحيح أننى تأكدت من أنها ليست حاملاً.. لكن ماذا لو أنه مات الآن فجأة والجميع يعرفون أنها لم تزف إليه بعد؟ وماذا لو تركها معلقة لا هى زوجة ولا هى مطلقة؟ وماذا.. وماذا.. أسئلة وخواطر مزعجة حتى أصبح كل أملى فى الحياة هو أن تزف إلى زوجها وتقضى فى بيته ولو ليلة واحدة، وبعدها فليفعل الله بها ما يشاء.

وصارحت أباها بما حدث ففزع فزعًا شديدًا، لكنه حاول تهدئتى

قدر استطاعته، واقترح عليّ أن يتم الزفاف بعد عودة والد العريس من البلد الذى يعمل به بعد شهرين، لكنى فقدت صوابى.. شهران؟ ومن يضمن لى ألا يموت العريس خلال هذه الفترة ونتعرض للقيل والقال عند زواجها من آخر؟!

وانتقل الرعب من قلبى إلى قلب ابنتى، فتغير حالها من الفتاة التى كانت معتزة بنفسها وكثيرًا ما كانت تتدلل على خطيبها وتصرّ على رأيها حتى يوافقها عليه فتشعر بأهميتها لديه وأنوثتها معه، تغيرت هذه الفتاة تمامًا فأصبحت نظراتها لخطيبها ذليلة وتحاول استرضاءه بشتى الوسائل، بل لقد أصبحت عبدة له، خوفًا من أن يتركها أو يتخلى عنها.

وصارحت أنا خطيبها بما علمت وهاجمته بعنف، وتحملنى هو بصبر، وأمرته بقسوة بأن يكون الزفاف بعد عشرة أيام لا غير، وانفجرت فيه حين حاول إقناعى بالانتظار شهرين حتى عودة أبيه، فانطلقت ابنتى فجأة فى بكاء هستيرى وتوسلت إليه فى ذل كاد يقتلنى أن يستجيب لرغبتى، ولولا حبه العظيم لها ما تحملنى ولا تحملها، وفى النهاية لم يجد أمامه سوى الموافقة مع حيرته الشديدة، إذ كيف سيواجه أهله وكيف سيبرر لهم إتمام الزفاف بعد ١٠ أيام وقبل عودة أبيه، خاصة أنه قد تعهد لنا بكلمة شرف أن يكتم سره وسر ابنتى عن أهله.

وتركته غارقًا فى مشكلته وانشغلت بالإعداد للزفاف المتعجل.

وواجه خطيب ابنتى ثورة أمه وإخوته العارمة، وانهال عليه اللوم والتقريع: كيف لا تنتظر أباك؟.. ما هو وجه العجلة فى إتمام الزفاف؟ كيف تتزوج بغير أبيك، إلخ.. وكان موقفه أمامهم صعبًا للغاية، وراح يتعلل بشتى الحجج المرفوضة من جانبهم، وأخيرًا تم الزفاف فى الموعد الذى حددته، وبالغنا فى مظاهر الفرح وإظهار فرحتنا به كأن على رأسنا بطحة نتحسسها، وابنتى تجلس فى الكوشة كالطير المذبوح كسيرة القلب، خجلانة منى ومن أبيها، وابتسامتها حزينة كأنما انطفأت شموع الفرحة فى قلبها وهى ترى النفور والاستياء فى وجوه أهل زوجها، وترى الفرحة العصبية المتشنجة من جانبنا.. وأخيرًا انتهت أصعب ليلة فى عمرى كله، وانتقلت ابنتى إلى بيت زوجها، فإذا بأهله الذين كانوا يفركون أيديهم خجلاً إذا تحدثوا معنا يتجرأون علينا ويتهموننا باختطاف ابنهم، وبأننا ما صدقنا وجدناه كعريس حتى انقضضنا عليه... إلخ، ونغصوا على ابنتى حياتها، ولم يزرها منهم أحد للتهنئة بعد الزفاف، واضطر هو لأن يصطحبها إليهم مرات ومرات محاولاً استرضاء أمه وإخوته، وفى كل مرة تسمع ابنتى من حماتها ما لا يخطر لها على بال. ولأن ابنتى تشعر بالذنب عما فعلت لأنها سلمته نفسها قبل الزفاف، كما أن زوجها قد واجه ثورة أهله وتزوجها حسب إرادتنا؛ فإننى لم أستطع

أن أدافع عن ابنتى بكلمة واحدة، وتكررت معاناة ابنتى مع أهل زوجها وكلمات حماتها القارصة حتى أصابتها حالة اكتئاب أثرت على علاقتها الخاصة بزوجها، ولولا صبره وحبه لها لضاعت ابنتى. ثم مع الوقت وإحساسه بذبول زوجته فقد منعها من زيارة أهله.. وقلت زياراته هو لهم تدريجيًّا بعد أن شعر باليأس من الصفح عنه.. وللآن يا سيدى - وبعد مضى عدة شهور - فإن أمه وأباه لم يصفحا عنه، ولم يبح هو لهما أو لأحد بالسبب الذى اضطره لإتمام الزفاف على هذا النحو.

والآن بدأت ابنتى تستعيد ثقتها بنفسها بعد مجهود مُضن منى ومن أبيها ومن زوجها الذى لن أنسى له (معروفه) معنا ما حييت، وأصبح الآن أغلى من أبنائى لموقفه الرجولى منا وحفاظه على سرنا وكرامتنا. ولذلك فإننى أنصح كل أم أن تحاول - ولو من وراء قلبها - أن تسامح أبناءها وألا تضغط عليهم بقسوة، لأنها لا تعرف ظروفهم ولا ماذا يضطرهم إلى ما يضطرون إليه، وأنا أعتقد أن ابن كاتبة رسالة «العمر الضائع» له أيضا سره الخاص الذى دفعه لتعجل الزفاف على هذا النحو، وليس من الضرورى أن يكون هو نفس سر ابنتى، لكن هناك بالتأكيد سبباً قوياً لما فعل. لذلك أناشد والدته أن تسامحه وتصفح عنه، وأن ترحم زوجته الصغيرة وتسعدها برضاها عنهما. كما أناشد كل فتاة أن ترحم أهلها، وألا تضعهم فى مواقف مخزية

وشديدة الإحراج يحارون معها: كيف يتصرفون وكيف يحافظون على سمعتهم وصورتهم أمام الآخرين.. كما أرجو أن تفهم الفتاة المخطوبة والمعقود قرانها أنها ليست زوجة بعد، ولن تكون كذلك إلا حين تنتقل إلى بيتها السعيد الجديد بإذن الله، ولتكن كل خطوة فى توقيتها الصحيح حتى تشعر هى قبل غيرها بالرضا والسعادة، وحتى تتجنب العناء والمشاكل العائلية والأزمات النفسية التى تترتب على غير ذلك.. وشكرا.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

كل خروج على مألوف الحياة وما تراضى عليه البشر من أعراف وتقاليد ونظم اجتماعية مستقرة، هو فى النهاية مغامرة محفوفة بالمخاطر، ولابد أن تكون تبعاتها ثقيلة على من يقدم عليها. والكارثة هى أننا حين نهم بالوقوع فى هذه المخاطر فإننا ننسى فى لحظة العمى والجنون كل ما سوف نواجهه بعد قليل من أهوال وردود أفعال رافضة وساخطة، ولا تتملكنا فى تلك اللحظة سوى الرغبة فى الانسياق وراء أهوائنا دون تقدير للعواقب، ثم لا نلبث أن نفيق من سكرتنا ونتعجب من أمرنا ونتساءل نادمين: ماذا فعلنا بأنفسنا وبأعزائنا وقد كان فى مقدورنا أن نجنبهم ونتجنب معهم كل ذلك لو كنا فقط قد تحلينا بضبط النفس وقدّرنا لأقدامنا قبل الخطو موضعها.

ومهما حاولنا أن نبرر لأنفسنا ما فعلنا أو نلتمس لها العذر فيه، فإننا لا نستطيع أن ننفى عنها تهمة الأنانية والذاتية والانشغال بأنفسنا ورغباتنا وحدنا فى تلك المخاطرة، دون تقدير لما سوف يترتب عليها من عناء للأهل والأعزاء، لهذا فإن الإنسان مطالب بأن يحاول دائمًا تحقيق المعادلة الضرورية بين حقوق الآخرين عليه وواجباته تجاههم، وأولها ألا يضعهم بأفعاله موضع الحرج الاجتماعى والعائلى، ناهيك عما سوف ندفعه نحن من ثمنٍ غالٍ من أعصابنا ودمنا، ومن رفض الآخرين لنا وإنكارهم علينا ما فعلنا.

إن رسالتك مفيدة وهامة ياسيدتى، ولقد آثرت نشرها كاملة لكى يستفيد بتجربتك وتجربة ابنتك فيها من قد تراودهم أنفسهم للإقدام على مخاطرة الخروج على المألوف.. لعلهم يلمسون فى صدقك فى تصوير أحاسيسك حين علمت بالقنبلة والتغيرات التى طرأت على شخصية ابنتك قبيل الزفاف وبعده ما هو أبلغ من عشرات من النصائح والعظات التى تحض على عدم الخروج على ضوابط الحياة أو قوانينها. وهذا أمر عادل وضرورى، فنحن فى الحقيقة لا نعيش وحدنا فى صحراء قاحلة نستطيع أن نفعل فيها ما نشاء حين نشاء، وإنما نعيش وسط بشر لابد أن نرعى حقوقهم كما يرعون هم حقوقنا ولابد أن نلتزم معهم بكل ما يجنبهم الحرج والعناء..

والمفارقة التى لا أريد أن تفوتنى الإشارة إليها هو أن ما فعلته ابنتك مع خطيبها المعقود قرانها عليه لا يدخل فى النهاية فى دائرة الحرام، لكنه رغم ذلك يدخل فى دائرة الخطأ الكبير، لأنه خروج على الأعراف المستقرة وعلى ضوابط الحياة وحقوق الأهل والمجتمع، ولهذا كان فزعك واضطرابك، وكان انكسار ابنتك، وكان الموقف العصيب الذى واجهه زوج ابنتك فى النهاية مع أهله وما زال يواجهه وينعكس على زوجته حتى الآن، فلعل الجميع يتسامحون فيما لم يعد يغير منه شىء حجب الرضا ولا صكوك الحرمان، ولعل كل فتاة تعى مناشدتك الحكيمة لها وتعمل بها.. وشكرًا لك.

(١٦)
اللقب الأبغض

«إن من يعتز بنفسه وبأسرته وذويه وأبنائه حقًّــا وصدقا، هو من يربأ بنفسه عن الخطأ مهما كانت شدة احتياجه إليه»

أنا سيدة فى الخامسة والأربعين من عمرى، تزوجت منذ خمسة عشر عاما، ومنحنى الله ولدين وبنتين. ولى إخوة وأخوات، وقد نشأنا جميعا بين أب متفهم وأم حازمة تشربنا منهما القيم الدينية والأخلاقية، وصمدنا لاختبارات الحياة وجنينا ثمار كفاحنا، فتخرجنا وعملنا وترقينا جميعا فى مناصبنا. وتزوجت وأنا فى الثلاثين من عمرى من زوجى الذى أحببته، ومع ذلك فأنا الآن أعيش فى بيت أسرتى مع أبى وأمى وأولادى الأربعة، لأن من تقاليد أسرتى ألا تعيش الابنة مع أولادها وحدها فى مسكنها إذا كان الزوج غائبا.. وزوجى غائب منذ ٥ سنوات يا سيدى، لكنه ليس مسافرًا للعمل فى الخارج كما قد تتصور، ولا هاجرًا لى، وإنما هو للأسف..

سجين!.. نعم. زوجى، أبو أبنائى الذى أحبه سجين؛ فقد اتهم فى قضية أعتبرها مخلة بالشرف لخيانته للأمانة وتزويره وإعطائه شيكات بدون رصيد، وكلها تصرفات تتعلق بالمال، وهى السمة التى طفت الآن على السطح فأصبح كل إنسان يريد أن يعمل القليل ويجنى الكثير.. إننى لست أحلم بالمدينة الفاضلة، لكنى أتألم لانهيار الحلم الجميل الذى كنت أعيشه وأريد لأبنائى أن ينشأوا فيه. وقد قرأت لك رداً تقول فيه: إنه ليس من العدل أن يتحمل الإنسان تبعات أخطاء الآخرين.. وهذا هو العدل حقًّا يا سيدى. لكن كيف أنجو من تحمل تبعات أخطاء الآخرين وهؤلاء الآخرون هم زوجى وأبو أولادى الذين أخفيت عنهم خبر أبيهم؟ إذ ماذا أقول لهم عن الأب الذى ينبغى أن يكون مثلهم الأعلى، فى الحياة والقيم والمبادئ؟.. إننى لا أستطيع أن أفجعهم فى مثلهم الأعلى، وأفضل أن أدعهم فى حلمهم يحلمون باليوم الذى سيعود فيه (بابا) من الخارج حاملاً معه شهادة الدكتوراه التى زعمت لهم أنه يحضر لها هناك، بعد أن حصل على الماجستير هنا. ومع ذلك فإننى أكاد أجن كلما زرت زوجى فى سجنه كل أسبوع حين ألمس اللامبالاة التى يواجه بها الموقف.. وأكاد لا أصدق أنه هو نفس الإنسان الذى أحببته وعاشرته وحلمت معه بأن نعبر معًا بأبنائنا بحر الحياة إلى شاطئ الأمان.

إننى أتساءل: ما المبرر الذى يجعل أى إنسان يخون الأمانة ويخون ثقة الآخرين فيه؟

لقد كان والدى فى منصب يستطيع معه ـ لو أراد ـ أن يكون أحد نجوم مجتمع الثراء، لكنه والحمد لله لم يمد يده إلى قرش واحد من المال الحرام. . وكان يستطيع أن يجهزنا للزواج أحسن جهاز لو فعل، لكنه أراد لكل منا ـ ولدًا كان أو بنتا ـ أن يكون مسئولا عن نفسه، فساعدنا فى حدود إمكانياته ومعاشه بما يستطيع، واعتمدنا نحن فى الباقى على أنفسنا، وأصبح لكل منا بيته وأسرته وأبناؤه، لكن ها أنا أعود إليه محملة بأربعة أطفال صغار فى حكم الأيتام. . فلماذا يا ربى هذا العذاب وأنا لم أطلب شيئًا من الدنيا سوى الستر. . ولم أرد لأبنائى سوى الحياة الشريفة العادية؟

إننى أسمع عن زوجات قد يدفعن أزواجهن أحيانا إلى المال الحرام بمطالبهن التى لا تنتهى، وربى عليم بكل شىء. . يعلم أننى لم أطلب من زوجى شيئًا يفوق أو يتجاوز حدود إمكانياتنا المعروفة، لكنه هو الذى كانت له تطلعات غريبة لا تتفق مع دخلنا، وقد لاحظت عليه زيادة فى دخله كان يبررها دائمًا بصرف مكافآت له، وكان وقتى كله مشغولا بالعمل والبيت ورعاية الأولاد ورعايته هو، وكنت أحذره دائما من المال الحرام وما يجره على البيوت الآمنة من خراب، فأفقت من حلمى على الواقع المر، وتوالت الكوارث علينا وكانت صدمتى كبيرة. . وضاعف من آلامى ما أتكبده فى كل زيارة من عناء نفسى مؤلم، ومن إعداد مؤن وطلبات غريبة له ولزملائه

«زملاء السجن» دون أية مراعاة لمشاعرى ولا لأننا نفتقده كأب ورب أسرة، وكل همه هو الطلبات المختلفة من الطعام والملابس وأنواع البقول وأدوات التنظيف وخلافه، ولا يعرف أحد عمق المعاناة النفسية التى أعانيها حين أضطر ـ وأنا الأم والزوجة الجامعية والموظفة فى منصب محترم ـ لأن أتعامل عند زيارتى له مع نوع من البشر لم أكن أتخيل أن أتعامل معهم ذات يوم، كزوجات وأقارب المسجونين المحترفين الذين يذهبون إلى السجن وكأنهم فى نزهة عائلية، وكالجنود الذين تعودوا على أن يتعاملوا مع أقارب المسجونين كمواطنين من الدرجة العاشرة، ولا تفرقة عندهم بين زوجة تاجر مخدرات، وزوجة (بك) كان مفروضًا ألا يُعَرِّض زوجته ذات يوم لمثل هذه المهانة.

والعجيب أنه لا يشعر بالندم على ما فعل.. وقد قابل خبر فصله من عمله بعد صدور الحكم عليه بمنتهى البرود.. ولست أعرف هل هو برود فعلاً أم أن بداخله بركانًا يداريه ويريد أن يطمئننى!

لقد قرأت فى أحد الكتب أن كثيرين من المجرمين المسجونين فى أحد السجون الأمريكية التى زارها المؤلف لم يكونوا يشعرون بالندم على ما فعلوا، بل وكانوا يشعرون بأن الجميع قد ظلموهم، وحين قرأت ذلك منذ عشر سنوات لم أفهمه ولم أحس به.. لكنى فهمته الآن وأحسست به.

والكارثة أن بعض أقارب زوجى اتهمونى ـ سامحهم الله ـ بأننى كنت أعرف بما يفعل وأتستر عليه.. والله يعلم أننى لم أكن أعرف شيئًا مما فعل، ولو عرفت به فى حينه لكان لى معه شأن آخر، والحمد لله فإن أحدًا سوى هؤلاء الأقارب لم يصدق زعمهم عنى، وما زلت موضع احترام كل من أعرفهم، ولم ينقص هذا الاحترام بعد ما حدث، بل زادتنى المحنة إصرارًا على أن ينشأ أبنائى فى جو نظيف أوفر لهم فيه كل ما يحتاجون إليه إلا الأب الذى فقدوه، كما زادتنى المحنة إيمانا بأن الإنسان الشريف وحده هو الذى يستحق الحياة، كما وأن الإنسان لابد أن يؤمن دائما بأن لكل إنسان ظروفه ورزقه، ولا يبنغى أن يتطلع لما ليس فى قدرته، فأنا مثلاً قد دفعت مع أبنائى هذا الثمن الغالى من سعادتنا وأماننا، ولم ألاحظ أى فرق يذكر فى مستوى معيشتنا قبل أن يمد زوجى يده إلى المال الحرام، وبعد أن حدثت الكارثة، اللهم إلا فى بعض الأشياء التافهة التى يستطيع أى إنسان الاستغناء عنها بسهولة.. فهل تستحق مثل هذه الأشياء ما ندفعه أنا وأبنائى من ثمن باهظ لها الآن؟.. وكيف هان على زوجى أن يعرضنا جميعًا لهذه المحنة.. وكيف لم يرع مستقبل ابنتيه ولا أقول ولديه أيضا؟..

لقد فكرت جديًّـا فى السفر للخارج بعد أن أحسست بمدى الظلم الذى تعرضنا له كأسرة.. لكنى راجعت نفسى وتساءلت: ولماذا

أغترب عن بلدى وبها ملايين البشر الذين يتحملون ظروف حياتهم بصبر ولا يمدون أيديهم إلى الحرام؟.. لقد حدث ما حدث نتيجة لخطأ إنسان أخطأ واستمر فى الخطأ بلا وازع من ضمير.. فلماذا أسافر وأغترب؟ هل أهرب من مواجهة الناس؟..

ولماذا أهرب وقلوب أحبائى ـ كانت وما زالت ـ حولى فى محنتى وأعانتنى على تحملها؟..

إننى أعيش منذ ٥ سنوات فى بيت والدى وأنتظر أن أرجع إلى بيتى بعد خروج زوجى من سجنه، وسأرجع إليه.. ولكن ليس كزوجين، وأنا أصر على ذلك إصرارًا نهائيًّا ومهما كانت تبريراته، ولكن كأب وأم لأبنائنا فقط، فلقد هاجمتنى الأمراض كالسكر والقلب والضغط، وكلها أمراض عصبية.. وكثيرًا ما أبكى حتى تجف دموعى، وأتعزى عما أعانيه بما قرأت فى بريدك من هموم غيرى ومآسيهم، ولقد قرأت فيه أكثر من رسالة لسيدات مطلقات يشكين من أنهن يحملن اللقب البغيض، وهو لقب المطلقة بما له من آثار نفسية ومشاكل.. ولهؤلاء جميعًا أقول: إن هناك من هن أكثر تعاسة منكن.. فلقد كنت أتمنى أن أحمل لقب المطلقة أو لقب الأرملة وألا أحمل أبدًا هذا (اللقب الأبغض) وهو لقب زوجة السجين..

لقد أثقلت عليك برسالتى، لكننى أحسست الآن بالراحة لأننى كنت فى حاجة إلى أن أتحدث إلى إنسان يتفهم موقفى ويقدره،

فالجميع هنا يتهموننى بالجنون لإصرارى على الذهاب لزيارته أسبوعيا.. وأنا أتساءل: أليس هذا هو أقل شىء أستطيع أن أقدمه لوالد أبنائى؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لا لوم عليك يا سيدتى فى وفائك لزوجك وحرصك على زيارته أسبوعيا فى سجنه مع ما تتكبدين فى ذلك من معاناة نفسية ومادية مريرة.. فالأصل هو ألا يعاقب الجانى على جريمته مرتين، ولقد أخطأ زوجك فى حق المجتمع فعاقبه على جريمته بالسجن، وهو عقاب قاس وكاف فى حد ذاته، فإذا كنا لا نلوم من تتخلى عن زوجها إذا أخطأ فى حق مجتمعه وأسرته ودخل السجن، ونرى فى حصولها على الطلاق منه للضرر حقًّا لها تقدره وفقًا لظروفها، ولها أن تستخدمه أو تتنازل عنه.. فكيف نستطيع أن نلوم زوجة على وفائها لزوجها ووالد أطفالها الأربعة، بغض النظر عن خطيئته فى حق مجتمعه وأسرته؟

إن كل إنسان يتصرف بهُدًى من أخلاقياته ومثالياته هو وليس بأخلاقيات الآخرين وأفكارهم كما يقول لنا علماء السلوك، فإذا كنت قد أقمت على وفائك لزوجك ووالد أطفالك - بل وعلى حبك له أيضًا كما فهمت من رسالتك، ورغم مافعل بك وبأسرته - فلا لوم ولا عتاب.. فكل إنسان (ينفق مما عنده) يا سيدتى كما يقول لنا

السيد المسيح عليه السلام، ولقد رأيت أنت أنه ليس من الرحمة أن تنبذيه أو تتخلى عنه فى محنته القاسية، حتى ولو لم يكن جديرًا بهذا العطاء؛ لأن بينك وبينه صلة يصعب فصمها هم الأطفال الأربعة الذين ينتظرون عودة الأب الغائب من غيبته.. فمن ذا يستطيع لومك على ذلك؟

أما حديثك عن لا مبالاته وعدم إحساسه بالندم على ما فعل، فلست أستطيع الجزم بحقيقته.. لأن نفسية السجين تختلف كثيرًا عن نفسية من يتنسم نسيم الحرية، وهو غالبا - خاصة إذا كان شخصية سوية - يشعر بالندم فى أعماق سريرته على ما فعل، ويلعن اللحظة التى استسلم فيها لضعفه وانتهى به أمره إلى السحن .. والسجن دائمًا تجربة شديدة القسوة والمرارة إلى حد أنه لا يستطيع أحد أن يحكم عليها سوى من كابدها بنفسه، لكنه من ناحية أخرى يرى أنه يدفع ثمن جريمته باهظًا.. فماذا ينتظر منه الآخرون أكثر من ذلك؟! ولماذا يتوقعون منه فى كل لقاء معه أن يذرف الدمع ويبدى الندم بالكلمات والألفاظ وقد بكى فى بداية المحنة طويلاً حتى جفت مآقيه، ولن يغير بكاؤه الآن، ولا إظهار ندمه، من واقعه الحزين شيئا.. فضلاً عن أن لمجتمع السجن نفسه تقاليده التى تستنكر الضعف والتخاذل، وإنكار الجريمة وادعاء البراءة وإظهار الندم باعتباره ضعفا. ولهذا كله فإنى أرجح أن ما تتصورينه فيه من لا مبالاة وعدم إحساس بالندم، إنما هو غالبًا تبلد أو جمود فى المشاعر بتأثير الإقامة

الطويلة فى السجن واعتياد الأمر الواقع، وليس دليلا على عدم الندم. وحتى انحصار مطالبه فى الأشياء المادية لا يعنى ذلك أيضا، لأنها من ضرورات الحياة فى السجن وليست ترفًا ولا تعبيرًا عن اللامبالاة كما تتصورين.

والأشخاص الأسوياء من غير محترفى الإجرام ولا من أصحاب الشخصية السيكوباتية المنحرفة التى تختلط لديها الحدود بين الخطأ والصواب بشكل مرَضى ولا يردعها رادع عما ترغب أو ترى فيه صالحها.. الأشخاص الأسوياء هؤلاء لا يخرجون من السجن فى كل مكان بالعالم إلا بدرس واحد، هو أنه ينبغى عليهم ألا يرجعوا إليه مرة أخرى مهما كانت الظروف والمغريات!

ولست أتصور أن زوجك شخصية سيكوباتية، وإنما أتصور أنه واحد من أصحاب الضعف البشرى والحس الضعيف بحرمة المال العام، ومال الغير، الذين يمكن أن تجرفهم تطلعاتهم الحقيرة إلى هاوية الخطيئة.. وأمثال هؤلاء تكفى هرّاوة السجن الثقيلة غالبًا لتطهير رؤوسهم من هذه التطلعات والأوهام.. ويكفى ما تعانيه أسرهم وأبناؤهم وهم شخصيًّا خلال المحنة لإقناعهم بعد فوات الأوان بأن الإنسان الرحيم بأسرته حقًّا هو الإنسان الذى يشفق عليها من أن تطعم من حرام مهما كانت مغرياته.. وأنه لا شىء فى الحياة يعدل إحساس الأمان ورضا الضمير والسلام الذى يشعر به

الإنسان الشريف مهما كانت ظروفه قاسية.. فكل شيء فيما خلا رضاء ضمير الإنسان واستشعاره الذاتى للكرامة الإنسانية التى لا يستطيع أن يحس بها وهو يقرب الحرام.. باطل وتافه.. وأتفه من التفاهة..

وخير دليل على ذلك هو ما تقولينه أنت ياسيدتى من أنك لم تستشعرى فرقًا محسوسًا بين حياتك قبل أن يقرب زوجك المال الحرام وبعد أن ارتوى منه، سوى فى أشياء شديدة التفاهة ويمكن الاستغناء عنها بمنتهى السهولة، وحتى لو لم تكن كذلك فهى لا تستحق أيضًا أن يلوث الإنسان الشريف يده ونفسه وروحه بها. ومن أجمل ما قرأت من تعبيرات أدبية، تعبير يتحدث فيه الأديب الروسى العظيم تشيكوف عن شخص شريف فيقول عنه: (لقد كان أكثر اعتزازًا بنفسه من أن يكون مختلسًا أو لصًّا رغم شدة فقره)!

فهل تأمل البعض هذا التعبير الفريد؟.. إنه يقول لنا بإيجاز معجز: إن من يعتز بنفسه حقًّا وصدقًا وبأسرته وأبنائه وإخوته وذويه، وهو من يربأ بنفسه عن الخطأ مهما كانت شدة احتياجه إليه، وليس العكس.. ولست أتحدث هنا عن عقاب السماء ولا عن سوء المصير، فهذه كلها أمور معروفة، و(السكوت عن المعلوم بلاغة) كما تقول الحكمة القديمة.. لكنى أتحدث فقط عن تقدير الإنسان لنفسه ورؤيته لمدى جدارتها بأن تكون بين الشرفاء أو تكون بين غيرهم.

واستبشاعك أنت يا سيدتى لما فعل زوجك هو أيضًا جزء من ضوابط الحياة وقوانينها التى تكفل لها الاستقرار والاستمرار، وعالِم الاجتماع الشهير إميل دوركايم يقول لنا: إن أى موقف إدانة يتخذه المجتمع ضد من ينحرف من أفراده، إنما يهدف إلى منح الطمأنينة لباقى أفراد هذا المجتمع الذين يهمهم المحافظة على استقراره

بمعنى أنك ستفزعين يا سيدتى إذا علمت مثلاً أن أحدًا قد قتل أمه.. لكن المؤكد أنك كنت ستفزعين أكثر إذا وجدت المجتمع المحيط بهذه الجريمة لا يدينها ولا يستنكرها ولا ينبذ مرتكبها، فلعل زوجك يكون قد استوعب درس تجربته هذه.. واستوعب مغزى استنكار حتى أقرب الناس منه لها.. ولعلك لا تلومين أحدًا على حرمان أطفالك من أبيهم، وعلى ما تعانين من مهانة عند التعامل مع جنود السجن وزوجات المجرمين، سوى من لم يكن أكثر اعتزازًا بنفسه وبكم من أن يجنبكم هذا الهوان.. ولا لوم عليك فى النهاية فيما تختارين لحياتك معه فى المستقبل إذا لم يتأكد لديك صدق ندمه وصدق نيته على أن يبدأ معك ومع أبنائه ومع الحياة صفحة جديدة بيضاء.



(١٧)
ضرب السيــاط

«إن شئتَ فاظلم، وإن شئتَ فاعدل.. فما تَظلم فى النهاية سوى نفسك، وما تستعدى ربَّك فى الحقيقة سوى على نفسك»

أكتب إليك للمرة الثانية بعد أن كتبت لك منذ شهرين بقصتى ولم أجد ردًّا عليها. . فأنا سيدة فى الأربعين من عمرى، أعمل موظفة بهيئة حكومية منذ ١٧ عاما، وأحب عملى كثيرًا، وقد تزوجت منذ أحد عشر عامًا من رجل متوسط العمر يملك محلاً تجاريًّا بجوار مكتب الهيئة التى أعمل بها، وكان حين تزوجته أبًا لثلاثة أولاد، ودائم الشكوى من زوجته التى طلقها ثلاث مرات، فارتبط بى وجمعنى بيت واحد معه ومع أبنائه، وكنت قد أحببت هذا الرجل حبًّا ملك عَلَىَّ نفسى، فأديت واجبى كزوجة وأم تجاهه وتجاه أبنائه الذين أحببتهم ورعيتهم بإخلاص. وقد شاءت إرادة الله ألا أرزق بأطفال، وفشلت كل محاولاتى للإنجاب، فاتخذت من أولاد زوجى

أولادًا لى، وكانت أسعد أوقاتى دائما هى تلك التى أخرج فيها لأشترى لهم ملابسهم وألبى مطالبهم، وقد توليتهم صغارًا حتى كبروا ووصلوا إلى المرحلة الإعدادية، وطول هذه السنوات كنت أحل أية مشكلة تحدث معهم بعيدًا عن زوجى حتى لا أفسد عليه سعادته، وكان هو يردد دائما أن الله سبحانه وتعالى قد عوضه خيرًا عن زيجته الأولى الفاشلة بزواجه منى، وأنه يحبنى ولا يستطيع أن يتحمل فراقى. وكنت أسعد كثيرًا بهذه الكلمات الطيبة وأستمد منها قوة جديدة للاستمرار فى العطاء، خاصة وأنى ـ والحمد لله ـ سيدة متدينة ومحجبة، ثم حدث أن توفيت والدتى رحمها الله، وكنت أعتبرها كل شىء لى فى الحياة لأنى وحيدة بلا إخوة ولا أخوات.. فحزنت لوفاتها حزنًا شديدًا، وشعرت أن الدنيا قد خلت من حولى بعد رحيلها.. وفعلاً يا سيدى، فقد كان رحيلها عن الحياة نذيرًا بانتهاء أيام السعادة والأمان فى حياتى.. فعقب وفاتها بأيام أصيب ابن زوجى فى حادث سيارة ونقل إلى المستشفى فى حالة سيئة، فلازمته عشرة أيام، وجاءت والدته من البلدة التى تعيش فيها لتطمئن عليه، فكانت تذهب وتجىء وكأنها إنسانة غريبة عنه، ولا تطيل وجودها إلى جوار ابنها، فى حين أقوم أنا بكل ما يحتاج إليه من خدمة ورعاية فى المستشفى لأنى أحب هذا الولد حبًّا كبيرًا كما أحب إخوته، إلى أن جاءت ذكرى الأربعين لوفاة أمى، فاستأذنت زوجى فى الذهاب إلى شقتها لاستقبال أقاربى، فأذن لى بذلك،

وذهب هو بدلاً منى إلى المستشفى وأمضى النهار كله إلى جوار ابنه. وفى نهاية اليوم رجعت إلى بيتى، فإذا بزوجى يرفض السماح لى بالرجوع إليه ويطالبنى بالعودة إلى حيث أتيت. ومنذ ذلك الحين وأنا أقيم فى شقة والدتى التى ينازعنى عليها مالك البيت ويريد طردى منها بدعوى أننى متزوجة، وزوجى يرفض عودتى إلى بيته إلا إذا قدمت استقالتى من عملى وتفرغت له نهائيا. ولقد توسلت إليه واستحلفته بربه أن يتركنى أواصل العمل لمدة ثلاث سنوات فقط لكى أتم ٢٠ عاما فى الخدمة وأستحق نصيبى فى المعاش لأنى أخاف من تقلبات الأيام وليس لى مورد سوى عملى، فرفض ذلك بإصرار، ووسَّطت لديه الأهل والأصدقاء بلا فائدة، وأخيرًا سلمت مضطرة برغبته، وذهبت إليه وأبلغته بقبولى الاستقالة والتضحية بعملى من أجله، مع أن عملى لم يكن يؤثر على حياتى أو واجباتى تجاهه، فإذا بزوجى يفاجئنى مفاجأة أشد وأقسى، وهى أننى إذا رجعت للحياة معه فلن أعود للشقة التى عشت فيها ١١ عاما وارتبطت بها!.. ودهشت دهشة شديدة لذلك، وحاولت أن أفهم منه تفسيرًا مقبولاً له فلم أستطع.. وأخيرًا ـ وبعد عناء شديد ـ صارحنى بأنه يريد أن يتزوج من أخرى ويجعل من هذه الشقة التى وضعت على كل ركن فيها بصماتى عشًّا للزوجية الجديدة!

ولا تستطيع أن تتخيل ياسيدى مدى شقائى حين علمت منه ذلك

ولا ما شعرت به من غيظ وكمد وحقد على كل شيء.. لقد اسودت الحياة أمام عينى وفقدت الأمل فى كل شيء ولازمنى الاكتئاب بعدها واليأس حتى كرهت عملى الذى كنت أحبه كثيرًا، وأهملت أداء واجباتى فيه لأنى شعرت بأنه كان السبب فيما أعانى منه! ولقد رفضت أن تشاركنى فى زوجى الذى أحببته كل هذا الحب امرأة أخرى أيًّا كان وضعها، وطلبت من زوجى الطلاق، فطالبنى بالتنازل عن حقوقى المادية، وما زال سادرًا فى غيِّه ويرفض النصيحة، ويرد على من يقولون له أن زوجتك طيبة ومتدينة وترعى أبناءك، ولديك من الأبناء الذكر والأنثى، فما حاجتك إلى زواج جديد.. فيؤكد أنه معترف بذلك بل ما زال يحبنى.. لكنه يريد أن يتزوج وخلاص!

لقد مضت خمسة شهور طويلة وزوجى يرفض أن يطلقنى إلا إذا تنازلت له عن حقوقى، ويرفض عودتنا إلى حياتنا الطبيعية والعدول عن فكرة الزواج الجديد. ويقول إنه سوف يتزوج عرفيًّا حتى لا أحصل منه على الطلاق عن طريق المحكمة.. فهل هذا عدل يا سيدى؟.. وهل هذه مكافأتى على الحب والإخلاص وتربية أبناء زوجى الصغار وحبهم ورعايتهم؟..

إننى أرجوك أن تكتب لى كلمة، وأن تنصحه بألا يظلمنى لأن الظلم ظلمات يوم القيامة.. وأن تقول له: إننى لا أريد منه شيئًا

سوى أن يطلقنى ويعطينى حقوقى، ولى الله بعد ذلك يتولانى ويرعانى، وإنى واثقة من أنه لن يتخلى عنى لأنى لم أظلم زوجى يومًا ما، وكنت أرعى ربى فى كل تصرفاتى معه ومع أبنائه طوال سنوات الزواج. لكن السؤال الذى يحيرنى هو: هل هذا مصير الزوجة المحبة المخلصة لزوجها وبيتها؟ . . وهل ذنبى أننى لم أرزق بأطفال؟ . .

لقد أصبحت أشك فى جميع الناس، وفقدت الثقة فى كل من حولى، ولا أريد أن أقابل أحدًا أو أتحدث مع أحد، بعد ما فعله بى هذا الزوج الغادر الذى كنت أعتبره كل دنياى، وأعتبره الأب والأخ والزوج والحبيب وكل أهلى وأقاربى. . وإننى أناشدك أن تكتب له كلمة بألا يفعل معى سوى ما يرضى عنه ربه، وألا يظلمنى فيه. . ولك منى كل شكر وتقدير. . والسلام.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

تقلب المشاعر والقلوب أمر وارد ومن طبيعة البشر، لكن التجمّل والتعفف عن خذلان من أخلصوا الود للإنسان، واسترجاع مواقفهم معه وعطاءهم المخلص له والإشفاق عليهم مما قد يصيبهم من أذى وإيلام إذا هو انساق لرغباته وحدها، يرجع بالأصلاء من بنى البشر عن الاستسلام لخطرات النفس الأمارة بالسوء، ويردهم عن غيهم. . وقد يحيى فى قلوبهم بعد حين المشاعر القديمة تجاه شركائهم، فترجع

صادقة إذا حثها على التنبه من مرقدها ورعاها وأذكى نارها الفاترة إلى أن تسترد قوتها وعافيتها من جديد، وهذا هو ما ينبغى أن يفعله الإنسان فى مثل هذا الموقف، إذ لو استسلم كل إنسان لخطرات النفس وتقلبات المشاعر الطارئة لما دامت حياة، ولما تشارك اثنان فى رحلة العمر حتى نهايتها. والواضح يا سيدتى أن زوجك كانت له من قبل تحفظات قديمة على عملك وعلى تأثيره على حياتك معه ومع أبنائه، وأن مطالبته لك بالاستقالة منه لم تكن مفاجأة كاملة لك، وإنما كانت استطرادًا لموقف سابق تمت مناقشته مرارًا من قبل.

ورغم أنه كان يستطيع أن يتجمل بالصبر ثلاث سنوات أخرى حتى لا يحرمك من حقك المشروع فى المعاش وفى تأمين مستقبلك، إلا أنه أراد عامدًا هذه المرة أن يضعك أمام الخيار الصعب بين تطلعك للأمان المادى وبين رغبتك فى الاستقرار والسعادة معه. وظنى أنه لم يكن جادًا فى هذا الاختيار، لأن من قبل بعملك أحد عشر عاما كان يستطيع أن يصبر عليه بغير عناء ثلاث سنوات أخرى، وإنما هو فى تصورى قد أراد أن يدفعك إلى التمسك بعملك وطلب الطلاق مقابل التنازل عن حقوقك المادية لديه، وأن يصور الخلاف بينكما وكأنه خلاف حول استمرارك فى عملك والتضحية بزوجك، أو التضحية بعملك وتفضيل حياتك الزوجية، وحين فاجأته بالاستسلام لإرادته والتضحية بعملك قبل ثلاث سنوات فقط من أحقيتك فى المعاش

الكريم، اضطربت برامجه.. فاضطر لمصارحتك بنيته المبيتة للزواج مرة أخرى، وأراد إرغامك على القبول به كأمر واقع لا بديل عنه، ورفض الاستماع لنصح الناصحين بأنه لا يحتاج إلى زواج جديد، وقد منَّ الله عليه بالبنين وبالزوجة المحبة المخلصة الراعية لأبنائه، وهو بالفعل زواج لا ضرورة له ولا مبرر سوى هوى النفس والاستسلام لرغائبها بغير توقف أمام ما يترتب على ذلك من إيلام للآخرين.

وحتى لو سلمنا له بحقه فى أن يفعل بحياته ما يشاء وألا يتوقف أمام شقاء الآخرين برغباته، فلقد أعفانا الله سبحانه وتعالى من الحيرة، وأوضح لنا الطريق لكى نخفف من وقع إيذائنا للآخرين بتحول مشاعرنا عنهم، فخيرنا بين إمساك بمعروف وبين تسريح بإحسان.. و الإحسان فى اللغة أكبر وأعم وأشمل من (المعروف).. ومعناه أن نؤدى إلى من آذيناهم ـ إن عجزنا عن الترفع عن الاستسلام لأهوائنا وحدها ـ كل حقوقهم بلا مماطلة ولا تسويف، وبلا منازعة لهم فى شىء منها، بل ورأى لنا بحكمته أن نكون أكثر من كرماء معهم، عسى أن يخفف ذلك عنهم بعض ما يشعرون به من غصة وخذلان. وهذا هو نموذج الخلاف النبيل الذى ينبغى أن يلتزم به المرء مع من شاركهم حياتهم وتمازج عرقه بعرقهم.. أما أن نبخسهم حقهم وننازعهم فيه، ونطالبهم فوق كل ما أصابهم من إيلام

الجحود والنكران بالتنازل عنه، فهو ما لا يليق بالشرفاء من البشر، ولا يرضى عنه من حرم الظلم على نفسه ـ سبحانه ـ وجعله بين عباده محرما. . فقولى لزوجك كل ذلك يا سيدتى وذكريه بأننا لا نفلت أبدًا بظلم نرتكبه ضد أحد من عقاب الدنيا قبل عقاب السماء، وبأن الإنسان إنما يتوسل إلى ربه أن يجنبه ظلم الحياة والآخرين له بالعدل مع الجميع، وبالأمانة مع الحياة. . فإذا كان راغبًا فى غير ذلك فهو وشأنه، فما يختلف حاله فى ذلك فى كثير أو قليل عن حال ذلك الرجل الذى كان يضرب آخر بالسوط عقابًا له على شىء ارتكبه، فرآه أحد الصالحين، فلم يستعطفه ولم يناشده الرحمة بمن يؤذيه، وإنما قال له فى ثبات: إن شئت فأكثر. . وإن شئت فقلّل. . فما تضرب فى النهاية إلا نفسك!

وكذلك أقول لزوجك: إن شئت فاظلم، وإن شئت فاعدل. . فما تظلم فى النهاية سوى نفسك، وما تستعدى ربك فى الحقيقة سوى عليك. . فضع نفسك حيث تراها جديرة بأن تناله من عدل الحياة معها. . أو ظلمها لها. . والسلام.

كتب للمؤلف

١ ـ أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	١٩٩٨
٢ ـ يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الأولى	١٩٨٧
٣ ـ هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	١٩٩٨
٤ ـ صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة	٢٠٠١
٥ ـ نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة	٢٠٠١
٦ ـ العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة	٢٠٠١
٧ ـ صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة	٢٠٠١
٨ ـ افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة	٢٠٠١
٩ ـ اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة	٢٠٠١
١٠ ـ أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة	٢٠٠١
١١ ـ أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠١
١٢ ـ رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠١
١٣ ـ أماكن فى القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
١٤ ـ لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الثالثة	٢٠٠٠
١٥ ـ نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	١٩٩٦
١٦ ـ أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعه	٢٠٠٠
١٧ ـ مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانيه	٢٠٠٠
١٨ ـ أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
١٩ ـ طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢٠ ـ أعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢١ ـ الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الثانية	٢٠٠٠
٢٢ ـ سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة الثالثة	٢٠٠١
٢٣ ـ قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية	٢٠٠١
٢٤ ـ صور من حياتهم	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية	١٩٩٧
٢٥ ـ أهلاً . . مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية	٢٠٠١
٢٦ ـ قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة الثانية	٢٠٠١
٢٧ ـ أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٩

● كتب للمؤلف من إصدارات « الدار المصرية اللبنانية »

٢٨ ـ حصاد الصبر	قصص إنسانية	الطبعــة الأولى	٢٠٠١
٢٩ ـ صوت من السماء	قصص إنسانية	الطبعــة الأولى	٢٠٠١
٣٠ ـ العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الخامسة	١٩٩٨
٣١ ـ وقت للسعادة . . وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة	٢٠٠٠
٣٢ ـ شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعـة الثالثـة	١٩٩٦
٣٣ ـ خاتم فى إصبع القلب	صور أدبية	الطبعـة الثالثـة	١٩٩٩
٣٤ ـ وحدى مع الآخرين	مقالات	الطبعـة الثالثـة	١٩٩٩
٣٥ ـ ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعـة الثانيـة	٢٠٠٠
٣٦ ـ عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعـة الثالثـة	٢٠٠٠
٣٧ ـ ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعـة الثانيـة	٢٠٠٠
٣٨ ـ الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعـة الثانيـة	٢٠٠٠
٣٩ ـ دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعـة الثانيـة	٢٠٠٠
٤٠ ـ أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعـة الثانيـة	٢٠٠٠
٤١ ـ من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبية	الطبعــة الأولى	٢٠٠٠
٤٢ ـ الأرض المحترقة	قصص إنسانيـة	الطبعــة الأولى	٢٠٠٠
٤٣ ـ سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعـة الثالثـة	٢٠٠١
٤٤ ـ هو وهى والآخرين	قصص إنسانية	الطبعـة الثانيـة	٢٠٠١
٤٥ ـ حكايات شارعنا		الطبعــة الأولى	٢٠٠١

المحتويات